الصوفية في الإسلام



ألفه
المستشرق الكبير
الدكتور
ر. ا. نيكلسون

ترجمه وعلق عليه
نور الدين شريبه
خريج كلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر



الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٨٦

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 353 - 000 - 0

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الفهرس

تصدير

الصوفية رياضة وفلسفة

رياضة للنفس ، وفطم لها عن الشهوات ، وأخذ لها بأسباب الزهد ، حتى تنصرف إلى ماهو أسمى من التراب

وفلسفة ليست كالفلسفة التى يعرفها الناس ، فهى لاتقوم على قواعد المنطق ، ولا على أسباب العلم ، ولكنها تقوم على الهبة الربانية ، وعلى العلم اللدنى ، يناله من راض نفسه وراعاها

وقد عرفت الدنيا التصوف ، واختصمت فيه فأنصار متعصبون ، يرون الصوفية خيرًا كلها ، ويرون أعمال أهلها نبراسًا ، يهتدى به فى ظلام الحياة المهتدون وخصوم متعصبون ، يرمون أهل التصوف بالعظائم ، ويسمون مذهبهم بالكبائر

والحق أننا لن نجد مذهبًا فى الحياة لم يتعرض لتعصب النصير المدافع ، أو الخصيم المهاجم

وقد بدأ الإسلام دينًا سمحًا هيّنًا ، يعمل المسلم فيه لدنياه كأنه يعيش أبدًا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا وآثر قوم من الرعيل الأول الزهد فى طيبات الحياة الدنيا ، ورغبوا إلى الله ، فى طلب ماعنده . فلما فتح الله على المسلمين الأرض ودانت لهم الدنيا ، انصب فى بحر الحياة الإسلامية خليط من الثقافات المتباينة ، والوراثات المختلفة ؛ وعج بها ، حتى أضحى محيطا صاخبا فيه المتحضرون والبدائيون ، والفلاسفة والسذج ، ومن ورثوا أفكار الفرس ، والأغريق والرومان ، ومن دانوا بالبوذية ؛ وعبدوا الملوك انتظم الإسلام كل أولئك وألف منهم خليطا عجيبا ، كان نتاجه فى الحياة هو مجموع الحضارة الإسلامية

وقد تلفت الحفيظون على التراث الأصيل ، فهالهم هذا السيل المنهمر ، فوقفوا فى وجهه ، يردون الناس إلى المنبع الأول ومن هنا قام النزاع بين الفرق المختلفة ، وادّعت كل طائفة أن الحق عندها لاعند غيرها

وكان الصوفية من بين هذا الخضم عنصرًا فيه ، تأثر به جذبا ودفعًا وكان له خلصاؤه ، ونصراؤه ، وخصومه وعائبوه وقلما يقع للباحث فى

التصوف الإسلامى أن يجد بحثًا خلا عن التعصب ، أو اتسم بسمة الإنصاف الخالص

ولا ننكر أن التصوف ، شأن كل مذهب ، كان في أهله من يؤاخَذ على تفريطه أو إفراطه ، ولكن متى كان فى شرعة الحق أن يؤخذ الجار بظلم الجار ، ويتحمل الإسلام ، فى جوهره الصافى ، أخطاء المسلمين ؟!

* * *

وهذا الكتاب الذى بين يدى القراء ثمرة من ثمار البحث الموضوعى الشامل ، دفعنى إلى إخراجه فى العربية ، شدة حاجتها إلى الدراسات الشاملة ، والمداخل العامة فى التصوف ولا أدعى أن الكتاب قد خلا عن الأخطاء ، فذلك للمؤلف وحده ، ولكنى لم أتعقب مافيه إلا حين تعرض المؤلف لكتاب الله ، فقد بينت وجه الشطط فيما ذهب إليه

وثمة شئ آخر وهو أن المؤلف قد ساق البحث مجردًا ، ولم يذيله ، إلا فى النادر بالمصادر التى رجع إليها ، فالتزمت أن أذكر للقراء موضع ذلك من الكتب العربية

* * *

والأستاذ المؤلف الدكتور نيكلسون غنى عن التعريف قلما يجهل اسمه باحث فى التصوف الإسلامى فقد نشأ فى بيت علم وكان والده الأستاذ الدكتور هنرى نيكلسون أستاذ التاريخ الطبيعى بجامعة أبردين . ويبدو أن ابنه « رينولد » كان مولعًا منذ صدر شبابه بالمشرقيات فقد نال كثيرًا من الجوائز ، فى جامعتى أبردين وكمبردج ، نتيجة لتفوقه فى دراسته ، وفى اللغات الشرقية خاصة

وقد تتلمذ فى العربية على الأستاذ روبرتسن سميث ، كما درسها فى ستراسبورج وليدن

فلما تخرج من جامعة كمبردج سنة ١٨٩٣ اشتغل بتدريس الفارسية فيها . وفى جامعة لندن

ولا يعرف تاريخ الاستشراق إلا قلة من الباحثين وهبوا حياتهم للتصوف دون غيره ومن هؤلاء ، بل أول هؤلاء ؛ هو الأستاذ رينولد ألن نيكلسون فلم تمض خمسة أعوام ، على تخرجه ، حتى أخرج للناس « مختارات من ديوانى شمسى تبريزى » سنة ١٨٩٨ م وظل بعد ذلك ، يوالى إصدار

الكتب فى التصوف فينشر فى العربية والفارسية ، المصادر المخطوطة ويحققها فنشر فى الفارسية

١ - تذكرة الأولياء ، للعطار نشرها مابين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٧
٢ - فارس نامه ، بالاشتراك مع لسترانج سنة ١٩٠١
٣ - المثنوى ، لجلال الدين الرومى مع ترجمة انجليزية له ، أصدره بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠

ونشر فى العربية

١ - كتاب اللمع ، للسراج ، أخرجه وحققه ، سنة ١٩١٨ م
٢ - ترجمان الأشواق ، لابن عربى ، مع ترجمة وتعليق ، أخرجه سنة ١٩١١

وقد ترجم بعض الأصول الفارسية إلى الانجليزية مثل
١ - كشف المحجوب ، للهجويرى ، ترجمه سنة ١٩١١
٢ - أسرار النفس ، لاقبال ترجمه سنة ١٩٢٠
عدا ماألف من الكتب ، وأنشأ من المقالات فى صحف المستشرقين

* * *

واسم هذا الكتاب - الذى بين يدى القارئ - إن التزمنا الترجمة الحرفية - « الصوفية المسلمون » ، ولكننى آثرت أن أسمية « الصوفية فى الإسلام » ذلك لأن التسمية الأولى ، يفهم منها القارئ أن الكتاب من كتب التراجم ، وليس كذلك ، بل هو بحث عن التصوف والصوفية عامة ، من غير تعرض إلى ترجمة أحد منهم

وأحب أن أقدم الثناء لكل من عاون على إخراج هذا الكتاب
والله المسئول أن يهدينا طريق الرشاد

القاهرة { ربيع الأول سة ١٣٧١ هـ
ديسمبر سنة ١٩٥١ م } نور الدين شريبه

مقدمة

يبين عنوان هذا الكتاب بيانا كافيًا ؛ السبب الذى من أجله احتوته سلسلة [١] تبسط الجهود والمخاطر ، التى يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم ، فى الكشف عن الحقيقة

والصوفية - فلسفة الإسلام الدينية - قد وصفت ، فى أقدم تعريف موجود ، بأنها « الأخذ بالحقائق » [٢] والصوفية المسلمون مولعون بأن يسموا أنفسهم « أهل الحق » [٣]

وأنا حين أحاول أن أعرض أصول مذاهبهم ، على هذا الوجه من الرأى ، سوف أعتمد - إلى حد ما - على ماجمعته خلال العشرين عاما السالفة ، من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الإسلامى والتصوف الإسلامى موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج إلى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته فى إنصاف

وليس فى طوقى هنا ، إلا أن أرسم هيكلا عامًا لبعض القواعد والطرق والخصائص المميزة للحياة الروحية ، كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادى - الأول الهجرى - إلى وقتنا الحاضر

---

(١) نشر أصل الكتاب فى سلسلة البحث « quest Series » سنة ١٩١٤

(٢) النص بتمامه « قال معروف الكرخى التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق »

القشيرى الرسالة ص ١٦٥ س ٢٦ ، ٢٧

(٣) الحق لفظ كثيرا مايدور على ألسنة الصوفية حين يشيرون إلى الله تعالى

يقول أبو نصر السراج الطوسى « الحق هو الله عز وجل ، قال الله تعالى

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة النور ، الآية ٢٥]

اللمع ص ٣٣٦ س ١١

وإن الدروب التى سلكوها لشاقة ؛ وإن ماتؤدى إليه من النجاد لمظلم محير ، قد انعدمت فيه الصُّوَى ومع ذلك فإن لم نأمل أن نصحب السَّفْر إلى غاية رحلتهم ، فإن معرفة نجمعها عن وسطهم الدينى ، وتاريخهم الروحى ، لابد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغريبة ، التى كتبوا عنها

ومن هنا أود قبل كل شئ ، أن أقدم ملاحظات قليلة ؛ عن الصوفية ونموها التاريخى ، وصلتها بالإسلام ، وصفتها العامة

وليسبت هذه الأمور نافعة لدارس « علم الأديان المقارن » وحده ؛ بل إن شيئا من العلم بها لاغنى عنه ألبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقى ، فى النهاية ، عند نقطة واحدة وذلك حق بيد أن هذه « النقطة » عينها تتخذ وجوهًا واسعة الاختلاف ، تبعًا لديانة الصوفى وسلالته ، ومزاجه كما أن الخطوط التى تجتمع حول هذه « النقطة » تتباين تباينًا عظيما لا حد لتنوعه

والأنواع الكبرى من التصوف – وإن كان بينها شئ من الشبه فى العموم – كل منها مميز بخصائص ، نتجت عن الظروف التى منها نشأ ، وفيها ترعرع وكما أن التصوف المسيحى لايمكن أن يفهم دون الإشارة إلى المسيحية ، فكذلك التصوف الإسلامى ، لابد أن يبحث متصلا بالنمو الخارجى والداخلى للإسلام

وكلمة (Mystic) التى انحدرت من الديانة الأغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها فى العربية ، والفارسية ، والتركية – لغات الإسلام الثلاث الرئيسية – كلمة « صوفى » واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماما لأن للفظة « الصوفى » مدلول دينى خاص وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الإسلامى [١] والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى

---

(١) يقول أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف ، وللجماعة المتصوفة »

الرسالة القشيرية ص ١٦٤ س ٢٧ – ٢٩

الأيام مدلول الكلمة الأغريقية الواسع - شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة - إلا أن مدلولها كان متواضعًا يوم جرت على الألسنة لأول مرة حوالى نهاية القرن الثانى الهجـــــرى [١] (حوالى سنة ٨٠٠ م)

واشتقاقها لايزال - حتى الآن - موضع خلاف [٢] فأكثر الصوفية يشتقونها - غير عابئين بقواعد التصريف والاشتقاق - من (الصفاء) [٣] ومعنى هذا أن يكون الصوفى هو « الصافى القلب » ، أو هو « المصطفى »

وبعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الأغريقية « سوفوس » بمعنى « ثيو صوفى »

ولكن « نولدكه Nöldeke بين فى يقين ، فى مقال نشر سنة ١٨٩٤ أن الكلمة مشتقة من « الصوف » [٤] وأنها كانت فى الأصل - موضوعة لزهاد

---

(١) يقول القشيرى « المسلمون بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم - فى عصرهم - بتسمية علم ، سوى صحبة رسول الله ﷺ فقيل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثانى ، سمى من صحب الصحابة التابعين .... ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين . ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد . ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة ، باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة » الرسالة القشيرية ص ٩ س ٢٠ - ٢٨

(٢) يقول القشيرى « ليس يشهد لهذا الاسم - من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق . والا ظهر أنه كاللقب »

الرسالة القشيرية ص ١٦٤ س ٢٩ ، ٣٠

(٣) يقول القشيرى « من قال إنه من الصفاء » ، فاشتقاق « الصوفى » من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة »

الرسالة القشيرية ص ١٦٥ س ٢ ، ٣

(٤) يقول القشـيرى « أما قول من قال إنه من « الصوف » ، و « تصوف » إذا لبس الصوف ، كما يقال « تَقَمَّص » إذا لبس القميص ، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف »

الرسالة القشيرية ص ١٦٤ س ٣٠ ، ٣١

المسلمين ، الذين تشبهوا برهبان النصارى ، فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا [١]

* * *

والصوفية الأولون كانوا – فى الحقيقة – زهادًا وادعين ، أكثر منهم متصوفة فإدراكهم المستولى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار ؛ تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحققها ، والتى صوّرت فى القرآن تصويرًا حيًا ، دفعتهم إلى أن يجدوا فى الهرب من الدنيا مخلصًا لهم ثم إن القرآن ينذرهم – من جهة أخرى – أن النجاة تتوقف أساسًا على مشيئة الله الخفية ؛ التى تهدى الصالحين سواء السبيل ، وتضل الظالمين عن القصد القويم وأن حظهم قد رقم فى اللوح الخالد ، لوح عناية الله ، لايستطيع شئ له تبديلا [٢] فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجيهم صومهم وصلاتهم ، ومايأتون من الأعمال الصالحة ، فهم لابد ناجون [٣]

واعتقاد كهذا ، لابد أن ينتهى إلى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الإلهية وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صوره

---

(١) قال أبو سليمان الداراني « الصوف علم من أعلام الزهد . فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبة خمسة دراهم »

الرسالة القشيرية ص ٧١ س ٢ ، ٣

(٢) قال أبو العباس السيارى « كيف السبيل إلى ترك ذنب كان عليك فى اللوح المحفوظ محفوظا ، وإلى صرف قضاء كان العبد به مربوطا »

أبو عبد الرحمن السلمى طبقات الصوفية ١١٤ ظ مخطوط

(٣) قال أبو سعيد الخراز « من ظن أنه يبذل الجهد يصل إلى مطلوبه فمتعن . ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمن »

الرسالة القشيرية ص ٦ ص ١٣ – ١٥

وقال أبو محمد الجريرى « من توهم أن عملا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضل عن طريقه . لأن النبى ﷺ قال (لن ينجى أحدا منكم عمله) فمالا ينجى من المخوف كيف يبلغ إلى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله ، فذلك الذى يرجى له الوصول »

السلمى طبقات الصوفية ٦٧ – و مخطوط

وقد كان المعين الأصيل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادى - الأول الهجرى - هو الخوف ؛ الخوف من الله والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة على أن الدافع المناقض له - الحب - كان قد بدأ يظهر تأثيره . وجعل من ولية الله « رابعة » - على الأقل - مثلا ملحوظا لإنكار الذات الصوفى الحق

وإلى هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية وبين المتشددين من أهل السنة إلا أن الصوفية يجعلون لبعض آيات القرآن أهمية خاصة ، ويصرفون إليها همهم ، دون غيرها من الآيات ؛ التى يعتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية [١]

ولابد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الإسلام المرحة النشيطة والنبى فى حديث مشهور [٢] ، قد رفض تقشفات الرهبانية ، وأمر قومه أن يحبسوا أنفسهم على الجهاد وجعل من نفسه - كما هو معروف - أصدق

---

(١) يشرح أبو نصر السراج هذه الفكرة فيقول « وللصوفية تخصيص من طبقات أهل العلم ، باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة ، وأخبار عن رسول الله ﷺ مروية ما نسختها آية ، وما رفع حكمها خبر ولا أثر ، يدعو ذلك إلى مكارم الأخلاق ، ويحث على معانى الأحوال ، وفضائل الأعمال ، وينبئ عن مقامات عالية فى الدين وذلك موجود فى دواوين العلماء والفقهاء وليس لهم فى ذلك تفقه ولا استنباط ، كتفقههم فى سائر العلوم ، وليس لغير الصوفية - من أولى العلم ، القائمين بالقسط - فى ذلك نصيب ، غير الإقرار والإيمان بأنه حق وذلك مثل حقائق التوبة ، وصفاتها ، ودرجات التائبين ، وحقائقهم ، ودقائق الورع ، وأحوال الورعين ، وطبقات المتوكلين ، ومقامات الراغبين ، ودرجات الصابرين »

اللمع ص ١٣ ، ١٤

(٢) الزهرى عن عروة قال « دخلت امرأة عثمان بن مظعون - أحسب اسمها خولة بنت حكيم - على عائشة ، وهى باذة الهيئة فسألتها ما شأنك ؟! فقالت زوجى يقوم الليل ويصوم النهار ! فدخل النبى ﷺ ، فذكرت عائشة ذلك له ، فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال : ياعثمان ! إن الرهبانية لم تكتب علينا أفما لك فىَّ أسوة ؟! فوالله إنى أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده »

ابن حنبل المسند جـ ٦ ص ٢٢٦

الأمثلة على تحبيذ الزواج . وتحريمه للبتولة ، كان له أثره ، إلا أَن فتح خلفائه لفارس ، وسوريا ، ومصر ؛ قد وصل المسلمين بأفكار عدلت نظرتهم إلى الحياة وإلى الدين تعديلا عميقا

والقارئون للقرآن ، من الأوربيين ، لاتعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه [1] وعدم تماسكه فى معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه لم يكن

---

(١) تتضمن دعوى الأستاذ الخاطئة شعبا أربع

أولا يقرر أن القرآن مؤلفه مضطرب ، غير متماسك فى معالجة كبار المشكلات

ثانيا أن المؤلف نفسه لم يكن مدركا وجود هذا الاضطراب والتعارض

ثالثا أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم إلى الإيمان بأن القرآن كلام الله

رابعا أن الفرق الإسلامية ، من أمثال المرجئة والقدرية والمعتزلة والأشعرية إنما قامت بسبب هذا التعارض الذى يحويه القرآن

والباحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسعه إلا أن يرى الشطط الفكرى ، والخطأ التاريخى ، الذى وقع فيه الأستاذ نيكلسون

فمؤلف القرآن عنده هو محمد - صلوات الله عليه - وليس القرآن كتابا أنزله الله على رسوله . وهذه دعوى المستشرقين عامة ، سبقهم إليها كفار قريش أنفسهم واجهوا بها رسول الله حين دعاهم إلى كتاب الله ، فقالوا عنه إنه ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [سورة الفرقان الآية ٥] بل ذهبوا إلى أنه يستمليها رجلا غيره ، فكذبهم الله بقــــوله ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل الآية ١٠٣] وتحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء الآية ٨٨] ثم زاد فى تحديهم فطالبـــــهم أن يأتوا بعشر سور مثله ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود الآية ١٣] . وبالغ غاية المبالغة فى تحديهم فطالبهم أن يأتوا بسورة فعجزوا ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس الآية ٣٨] وقام هذا التحدى - بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى - مدى هذه القرون الطوال وابتلى الإسلام بفرق الزنادقة والملاحدة ، وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة ، ولكنهم صغروا أمام هذا التحدى القائم فى وجوههم من الكتاب العزيز =

على علم بهذه المتعارضات ، ولم تكن حجر عثرة فى سبيل صحابته ،

= وعجيب أمر المستشرقين ! فالذين يقرأون ماكتبوا عن محمد صلوات الله عليه – حتى من يدعون الإنصاف منهم – ينتهون إلى رأى عجب فيه ، هو أن محمدا من أوساط الناس . لا يتميز – عندهم – بشئ من العبقرية الخالقة ، ولا الفكر المستنير !! فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب ، الذى دانت له الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى لا ينبغى أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبيهم ؟! كلتا الدعويين تناقض الأخرى

وثمة شئ آخر يثبت أن القرآن من عند الله ، وإن لم يكن المقام مقام استقصاء للأدلة على ذلك ، أننا قد ورثنا عن رسول الله ، كتاب ربنا ، وسنة نبينا . ومن يقرأ السنة النبوية ، والكتاب الكريم ، يرى الفرق واضحا بينهما فى كل شئ : فى أسلوب التعبير ، وفى الموضوعات اللاتى يعالجانها والطريقة التى يعالجانها بها فلو كان الكتاب من عند محمد ﷺ ، لكان والسنة صنوين – فى التعبير على الأقل – وشتان مـــا بينهما . القرآن كتاب الله ، ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تَعَامَ عن هذه الحقيقة الواضحة المتعاملون

وليس فى القرآن تضارب ولا تناقض ، بل ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران الآية ٧] وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه (المتشابهات) وعدوها (متضاربات) فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرفتهم القاصرة ، باللغة العربية خاصة ، والتفكير الإسلامى عامة . وأنت مهما جهدت أن تتذوق اللغة كما يتذوقها أبناؤها فلن تستطيع فقد يقرأ القارئ العربى آية من الكتاب العزيز فتأخذه روعتها ، أو بيت شعر فينتصب واقفا ولكنه لايجد هذه الروعة حين يقرأ لشكسبير أو ملتون وأهل كل لغة أعرف بخفاياها

والقرآن ليس كتابا ألف فى موضوع واحد حتى يلتزم فيه مايلتزم فى الكتب الموضوعة على هذا النحو ، من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كافة يجد فيه الفيلسوف زاده ، والصوفى روحانيته ، والمشرع أصول قوانينه ، والأخلاقى قواعد سلوكه ، واللغوى فرائد بيانه ومن هنا تنوع مافيه من قصص ، وحكم وتشريع ، وتاريخ وكان على هذا كله متناسقا لا اختلاف فيه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء الآية ٨٢]

والذين لهم أقل بصر بالدراسات الإسلامية يعلمون أن الجماعة الإسلامية ، قد ابتليت – بعد وفاة الرسول – بالاختلاف على من يلى أمر المسلمين ، إلى أن فض الاختلاف ظاهرا بولاية أبى بكر رضى الله عنه ، وأن السفينة الإسلامية قد ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه فى وجه على رضى الله عنه ، وأن الحياة الإسلامية قد تشعبت واتسعت ، بعوامل الفتح ، والوراثات الفكرية المختلفة ، التى انصبت فى المحيط العربى الإسلامى ، =

الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله ولكن الصدع من هنا وجد وسرعان ماأظهر نتائج بعيدة الآثار من هنا قامت « المرجئة » الذين يضعون الإيمان فوق الأعمال ، ويلحون على حسن السيرة والحب فى الله ؛ و « القدرية » الذين يؤكدون أن الإنسان مسئول عن أعماله ؛ و « الجبرية » الذين ينكرون ذلك ؛ و « المعتزلة » الذين أنشأوا « علم الكلام » مؤسسًا على قواعد العقل ، وأنكروا صفات الله ، لأنها لاتتفق ووحدانيته ، والقضاء الأزلى ، لأنه لايتفق وعدله ؛ ثم « الأشاعرة » أخيرًا - متكلمو الإسلام الجدليون - الذين صاغوا النظام الدينى والغيبى (الميتافيزيقى) الذى يقوم عليه مذهب أهل السنة فى الوقت الحاضر

كل هذه النظريات الفلسفية - وقد تأثرت بلاهوت الإغريق وفلسفتهم - كان لها رد فعل قوى ففى مطلع القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - نلمح الأدلة البينة للخميرة الجديدة ، تضطرب فى أثنائه فلم يقف الصوفية عند حد إعنات أجسامهم ، والفخر بفقرهم ؛ بل بدأوا يرون فى التقشف الخطوة الأولى فى رحلة طويلة ، والإعداد الأول لحياة روحية أرحب آفاقا من تلك التى كان يستطيع أن يتصورها الزاهد الخالص ولعل طبيعة التغير أن تستبين باقتطاف جمل قليلة انحدرت إلينا من صوفية هذا العهد

١ - قيل لمعروف [١] « أخبرنا عن المحبة أى شئ هى ؟ » قال « يأخى ! ليس المحبة من تعليم الناس المحبة من تعليم الحبيب » [٢]

= فقامت هذه الفرق المختلفة وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها ولكن الذى لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سببا مباشرا لقيام هذه الفرق

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الإسلامية من المستشرقين يلتزمون الإنصاف فى أحكامهم ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق ! ولكن هذه منزلة لا يصل إليها إلا القلة المختارة من المفكرين

(١) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى من موالى على بن موسى الرضا كان والده نصرانيين ، ثم أنه أسلم على يد على بن موسى مات سنة مائتين ، وقيل سنة إحدى ومائتين وكان أستاذ سرى السقطى

الرسالة القشيرية ص ١٢ س ١ - ٨

(٢) المكى قوت القلوب جـ ٣ ص ١٠٠ س ١٤ ، ١٥

السلمى طبقات الصوفية ورقة ١٨

٢ - « لايخلو بشر عن شهوات هذه الدنيا ، إلا من كان فى قلبه نور يديم اشتغاله بالحياة الآخرة »

٣ - إذا انفتحت عين بصيرة العارف ، نامت عين بصره ، فلا يرى إلا الله !

٤ - قال ذو النون المصرى [١] « لو أن الخلق عرفوا ذل أهل المعرفة ، فى أنفسهم لحثوا التراب على رءوسهم وفى وجوههم فقال رجل كان حاضرا فى المجلس « رجل مؤيد ! » فذكرت لطاهر المقدسى [٢] ، فقال : « سقى الله أبا الفيض ! حقا ماقال ، ولكني أقول لو أبـــدى الله نور المعرفة للزاهدين والعابدين ، والمحتجبين عنه بالأحوال لاحترقوا واضمحلوا ، وتلاشوا حتى كأن لم يكونوا » [٣]

٥ - كان أبو سليمان [٤] يقول « المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام » [٥]

٦ - لايرى الله شئ ويموت ، كما لايرى الله شئ ويبقى . لأن الله أزلى خالد فمن رآه فقد خلد

٧ - قال ذو النون المصرى « إلهى ! مأأصغيت إلى صوت حيوان ،

---

(١) أبو الفيض ، ثوبان بن إبراهيم ، ذو النون المصرى كان أبوه نوبيا وكان رجلا نحيفا ، تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين . ودفن بالقاهرة الرسالة القشيرية ص ١٠ س ٢٦ - ٣٠

(٢) طاهر المقدسى من جلة مشايخ الشام وقدمائهم رأى ذا النون المصرى وصحب يحيى الجلاء ، وكان عالما ، وهو الذى كان يسميه الشبلى « حبر أهل الشام » السلمى طبقات الصوفية ورقة ٦٩ ظ

(٣) أبو نعيم الحلية جـ ٩ ص ٣٦١ س ٢٠ - ٢٥

(٤) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى الزاهد المشهور . روى الحديث عن الربيع بن صبيح ، وأهل العراق وروى عنه صاحبه أحمد بن أبى الحوارى والقاسم الجوعى وغيرهما وهو من أهل داريا ، قرية من غوطة دمشق وينسب إليها أيضا بغير نون ، فيقال دارى ودارانى توفى سنة خمس عشرة ومائتين . ابن الأثير اللباب جـ ١ ص ٤٠٣ الرسالة القشيرية ص ١٩ س ٢١ - ٢٣

(٥) المكى قوت القلوب جـ ٢ ص ١١ س ١٦

ولا إلى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنـــم طائر ، ولاتنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ؛ إلا وجدتها شاهدة بوحـــدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شئ » [1]

٨ - وقال ذو النون « إلهى ! أدعوك فى الملأ كما تدعى الأرباب ، وأدعوك فى الخلاء كما تدعى الأحباب . أقول فى الملأ « ياإلهى ! » وأقول فى الخلاء « ياحبيبى » [2]

هذه الأفكار النور ، والمعرفة ، والحب ؛ تكوّن أصول الصوفية الجديدة وسأجهد - فى الفصول القادمة - أن أبين كيف نمت

وقد انتهت هذه الأفكار أخيرا إلى القول بوحدة الوجود دينا يدع عبادة الإله « الواحد المنزه » إلى عبادة « الموجود الحق الأحد » الذى يوجد فى كل مكان ويصرّف كل شئ ، والذى يحل عرشُه قلبَ الإنسان ، لا السموات العلى

ومن الخير - قبل أن نسير قدما - أن نجيب على سؤال ، لعل القارئ أن يسأله نفسه « من أين اجتلب مسلمو القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - هذا المذهب ؟ »

برهن البحث الحديث ، على أن أصل الصوفية لايمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال أنها رد فعل العقل الآرى ، تجاه الدين السامى الفاتح أو أنها ليست إلا نتاجا خالصا للفكر الفارسى ، أو الهندى

وأمثال هذه الأحكام - وإن يكن لها نصيب من الصحة - تغفل البديهية التى تحتم لإقامة رابطة تاريخية بين (أ) وبين (ب) أنه لايكفى أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن تبين فى الوقت عينه

١ - أن صلة (ب) الفعلية مع (أ) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة

٢ - أن الفرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعمة

وهذه الآراء ، التى ذكرت ، لاتقوم لهذه الشروط فإن لم تكن الصوفية

---

(١) أبو نعيم حلية الأولياء جـ ٩ ص ٣٤٢ س ١٣ - ١٥

(٢) أبو نعيم الحلية جـ ٩ ص ٣٣٢ س ١٨ ، ١٩

شيئًا غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفسر الحقيقة ، التى لا سبيل إلى الطعن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامى من أهل سوريا ومصر؟ وأنهم عرب الجنس ؟

وكذلك يغفل المتحمسون للأصل البوذى ، أو الفيدى ، عن أن التيار الرئيسى ، للتأثير الهندى على الحضارة الإسلامية ، يرجع إلى عهد متأخر ؛ مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم فى الإسلام ، قد آتت بواكيرها الغضة ، فوق تربة تشربت الحضارة الهلينستية

والحق أن الصوفية شئ معقد ومن هنا لم يكن فى الطوق أن يقدم جواب بسيط فى السؤال عن أصلها ولعلنا أن نقترب من الجواب إذا حددنا القوى والحركات المختلفة ، التى صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذى صارت إليه فى عهود نموها الباكرة

ولنعتبر أولا أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها

١ - المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التى أشرت إليها ، كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى للمسيح ، مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية [(١)] والرهابنة المسيحيون كثيرًا مايظهرون فى مقام المعلمين ، يولون النصح والتسديد لزهاد مسلمين متنقلين وقد رأينا أن ثوب الصوف - الذى منه جاء الصوفى - مسيحى الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هذا الأصل نفسه وفيما يتصل بمذهب « الحب الإلهى » ندع هذه المقتطفات تترجم عن نفسها

١ - « روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦ س ١٠ - ١٥ ، ص ٢٧ - ٣٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٦ س ١ ، ٢ وكذلك السلمى ورقه ٦٦ ظ السطور الأخيرة وغير ذلك

العبادة ، كأنهم الشنان البالية ، فقال ما أنتم ؟ » قالوا « نحن عباد » ، قال : « لأى شئ تعبدتم ؟ » ، قالوا « خوفنا من النار فخفنا منها » ؛ فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ماخفتم » ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة ، فقال « لأى شئ تعبدتم ؟ » فقالوا « شوقنا إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه ، فنحن نرجو ذلك » فقال « حق على الله أن يعطيكم مارجوتم » ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون ، فقال « ما أنتم ؟. » قالوا « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حبا له وتعظيما لجلاله » فقال « أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم » فأقام بين أظهرهم وفى لفظ آخر أنه قال للأولين

« مخلوقا خفتم ، ومخلوقا أحببتم » . وقال لهؤلاء : « أنتم المقربون » [١]

٢ - حدث أحمد بن أبى الحوارى [٢] قال « قلت لراهب « أى شئ أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » قال « ما نجد شيئًا أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق » [٣]

٣ - وسأل بعض الزهاد راهبا آخر « متى يكون الرجل أكثر إمعانا فى العبادة ؟ » فأجـــابه « حين يملك الحـــب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغيبة إلا فى العبادة المتصلة »

وتأثير المسيحية - من خلال أحبارها ، ورهبانها وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين [٤] Euchitae » - ذو وجهين زهدى ، وصوفى

---

(١) أبو طالب المكى قوت القلوب جـ ٣ ص ٨٢ س ١٣ - ١٩ وكذلك حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٧ س ٢٠ - ٢٥ ، ص ٨ س ١ - ٤

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبى الحوارى الدمشقى ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكتب ، وعن الوليد بن مسلم وصحب أبا سليمان الدارانى وحفظ عنه الرقائق

الأنساب للسمعانى ص ١٨٠

(٣) أبو نعيم حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٨ س ٧ - ٩

(٤) « المصلون Euchitae » فرقة مسيحية غالية ، من الهراطقة ، يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة ، وتبلغ بالإنسان حد الكمال الروحى ، والتحقق وقد قاموا بنشر مذهبهم ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى ، حتى=

والتصوف الشرقى المسيحى كان – على أى وجه – يحوى عنصرًا وثنيا فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين (١) ، واصطنع لغة المدرسة الأفلاطونية الحديثة

* * *

= القرن السادس ، بل إن تأثيرهم ليمتد إلى مابعد ذلك . ومن الصعب أن نكوّن فكرة واضحة عن آرائهم . لأن مابين أيدينا عنهم هو رأى من يخالفهم فيهم فأما اتجاههم فشأنه شأن اتجاه غيرهم من فرق الخوارج والهراطقة ، قد أبيد وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان يغويه على الوقوع فى الإثم . وليس التعميد بكاف فى طرد هذا الشيطان ، إنما يجتث التعميد هذا الإثم من ظاهره ويدع جذوره غائرة فى أعماق النفس والدواء الشافى لذلك هو الصلاة المتصلة ، حتى يحس الإنسان إحساسًا قويا أن شيطانه فارقه ، وقد تشاهد حينئذ الروح القدس داخلة إلى جسم الإنسان على هيئة نار غير مؤذية ، بينما تشاهد روح الشر عندئذ خارجة من فمه على صورة حبة فى أكمامها ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحادها مع عريسها ، كما تحس الزوج نشوة العناق مع زوجها حين يبنى بها ، وإذا فالمصلى يعتقد أنه مشارك فى الطبيعة الإلهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تتيسر لعامة الناس وكانوا يرقصون ليطئوا بأقدامهم شياطينهم التى كانت تتراءى لهم ويدعون لأنفسهم علم الغيب ، والكشف عما فى نفوس الناس كما كانوا لا يألون بوسائل الكنيسة العادية فى مقاومة الخطيئة من نحو رياضة الرهبنة و « العشاء الربانى Eucharist » وقد قصروا أوقاتهم على الصلاة وجعلوا يتكففون الناس حتى يشدوا رمقهم كما أنه كان من بينهم طوافون فى الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها وفى الصيف ينامون على قارعة الطريق على أن مناهضيهم يرمونهم بالفساد وانتشار الانحلال بينهم

Encyclopaedia of religion and Ethics. V.5 : P. 510

(١) أفلوطين فيلسوف من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ولد سنة ٢٠٥ م من أسرة رومانية ، استقر بها المقام فى مصر ، وتعلم فى مدرسة الاسكندرية ثم رحل إلى روما فنشر مذهبه ، حيث المذاهب الفلسفية القديمة ، وحيث المسيحية توفى سنة ٢٧٠ م

٢ - الأفلاطونية الحديثة

« أرسطو » - لا « أفلاطون » - هو الشخصية البارزة ، فى الفلسفة الإسلامية . وقليلون من المسلمين يعرفون اسم « أفلوطين » الذى يدعى أكثر مايدعى « بالشيخ اليونانى » . بيد أن العرب قد اكتسبوا معرفتهم لأرسطو عن طريق شراحه ، من رجال الأفلاطونية الحديثة ومن هنا كانت الطريقة التى تشربوها هى طريقة « فرفريوس Porphyry » [١] و « بركلوس Proclus » [٢] ومن هنا لم يكن الكتاب الذى يدعى « كتاب الربوبية لأرسطو » [٣] ، والذى ظهرت له ترجمة عربية ، فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - غير مختصر للأفلاطونية الحديثة

وهناك نتاج آخر لهذه المدرسة ، يستحق عناية خاصة ؛ وأعنى به هذه الكتابات التى نسبت زورًا « لديونسيوس القاضى Dionysius The Areopagite » [٤] الذى نصره القديس بولس وهذا الديونسيوس المستعار

(١) فرفريوس الصورى ، ولد سنة ٢٣٣ م ، وتوفى بعد سنة ٣٠٠ م ، فى حكم دقلدياتوس من بلدة « صور » بالشام . انتقل إلى روما ، مع أستاذه أفلوطين ، وشرح آراء أستاذه ودافع عنها وعلق على كتب أفلاطون وأرسطو والكتاب الذى اشتهر به عند المسلمين هو « إيساغوجى » أو « المدخل »

(٢) بروكلوس فيلسوف من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ولد سنة ٤١٢ م وتوفى سنة ٤٨٥ م درس الفلسفة فى « الاسكندرية » ، وقام بتعليمها فى « أثينا » وفى الأربعين من عمره ، خلف « سريانوس » فى رآسة مدرسة أثينا وظل فى هذا المنصب أكثر من ثلاثين عاما وهو - بعد أفلوطين - أشهر رجال المدرسة الأفلاطونية الحديثة وله شروح مشهورة على كتب « أفلاطون »

(٣) كتاب « أتولوجيا أرسطو » أو « كتاب الربوبية » لأرسطو نشره بالعربية ديتريتشى سنة ١٨٨٠ فى ليبسك

(٤) ديونيسيوس القاضى ، أو ديونيسيوس الأريوباجى ، منسوب إلى Areopagus أو مايعرف « بنجدمارس Mars'Hill » وهو مكان كانت تجتمع عليه الهيئة العليا للقضاء فى أثينا . والقديس ديونيسيوس باكورة الفلاسفة الأثينيين الذين آمنوا بالمسيحية ، وتولوا الدفاع عنها ، والدعوة لها بمجرد أن سمع القديس بولس ، فى « مجمع أريوباجوس » وكان من قبل عضوا فى المحكمة العليا وهو أول أسقف رسم لأثينا كما أنه ممن استشهدوا فى القرن الأول المسيحى دفاعا عن دينهم

صور من تاريخ القبط ص ٧

– ولعله أن يكون راهبًا سريانيا – يسمَّى أستاذا له « هيروثيوس Hierotheus » الذى لايراه « فروتنهام [١] Frotingham » غير « اصطفان بن صُدَّيلى [٢] Stephen Bar Sudaili » الغنوصى السريانى الشهير ، الذى عاصر « يعقوب السروجى [٣]

---

(١) انظر مقال الأستاذ فروتنهام فى أعمال جمعية المستشرقين الأمريكية سنة ١٨٨٢ ص ٩ – ١٣ تحت عنوان On The Book of Hierotheus. By a Mystic of the Fifth Century. The Amer. Or. Soc. Proce. 1882; pp 9-13

(٢) اصطفان بن صديلى سريانى ، ولد فى النصف الثانى ، من القرن الخامس الميلادى ، فى مدينة (الرها = أورفه = Edessa) وكان فى مبدأ حياته يعقوبيا . وقد رحل فى شبابه إلى مصر ، حيث كان بها راهب يسمى يوحنا ، وهو فيما يظهر الذى لقنه آراء « أوريجين » عن « وحدة الوجود » تلك الآراء التى عاد بها إلى الرها . واشتغل بشرح الإنجيل ، حسبما هداه إليه تفكيره وابتدأ ينكر أبدية عذاب جهنم وأكد أن المذنبين سيعودون إلى الجنة ، بعد تطهيرهم فى النار . فلما شاعت عنه هذه الآراء ، رمى بالإلحاد ، وطرد من الرها . فرحل إلى دير فى بيت المقدس .ولاشك أنه وجد بين رهبانه عددا ممن يشاطرونه هذه الآراء ، ولا ريب أنه قد عرف الرسائل المنحولة لديونيسيوس القاضى وهى رسائل ، شاء مؤلف مغمور ، أن يجد رواجا لآرائه – وبعضها عن وحدة الوجود – فجمعها وعزاها إلى ديونيسيوس لشهرته ويبدو أن اصطفان قد تشبه بهذا المؤلف المغمور ، فإنه جمع آراءه ، ونسبها إلى هيروثيوس ، الأستاذ المزعوم لديونيسيوس القاضى وهذا الكتاب عن أسرار الكنيسة وقد استعرض المؤلف فيه سلسلة آرائه ، ولكن الأسلوب السريانى الرشيق يؤكد لنا أنه من وضع اصطفان نفسه . ولم يجد هذا الكتاب طريقه إلى الانتشار ، حتى إن ابن العبرى يقول إنه وجد مشقة كبيرة فى الحصول على نسخة منه وقد وصل إلينا هذا الكتاب ، فى نفس المخطوط الذى حصل عليه ابن العبرى ، والذى يشتمل على شرح تيوديسيوس

Dictionnaire de Theologie Catholique. V.5; P. 981

وكذلك تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الإسلامى ، للدكتور مراد كامل ومحمد حمدى البكرى ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٣) يعقوب السروجى ، علم من أعلام الأدب السريانى ، ولد فى (كورتم Kurtum) سنة ٤٥١ م ، وهى قرية على الفرات ، غربى حران ، وإحدى قرى منطقة (سروج) ولذلك لقب بالسروجى تلقى علومه فى مدرسة الفرس بالرها وتمكن بعد فترة قصيرة أن يفوز بشهرة واسعة ، لعلمه وفصاحته . وانتظم فى سلك الكنيسة فبدأ حياته قيما فى (حورا) سنة ٥١٣ م غير بعيد من مسقط رأسه ثم عين أسقفا على (بطنان) عاصمة منطقة (سروج) سنة ٥١٩ م وكان حينئذ فى الثامنة والستين من عمره ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا ، فمات فى (بطنان) فى نوفمبر سنة ٥٢١ م وهو فى السبعين من عمره =

Jacob of Saruj ٤٥١ - ٥٢١ م » . ويقتطف ديونيسيوس بعض المقطوعات ، من أغاني الحب ، التي صاغها اصطفان هذا . وقد وصل إلينا مؤلف كامل هو « كتاب هيروثيوس عن أسرار الربوبية المغيبة » في مخطوط فريد يحتفظ به الآن « المتحف البريطاني British Museum » .

وقد نقلت كتابات « ديونيسيوس » إلى اللاتينية ، على يد « يوحنا سكوتس إريجينا [١] John Scotus Erigena » وأقامت تصوفا مسيحيا في العصر الوسيط ، موطنه أوربا الغربية

ولم يكن تأثيرها في الشرق أقل منه في الغرب فقد نقلت من الأغريقية إلى السريانية عقيب ظهورها وانتشر مذهبها في قوة ، بالشروح التي ظهرت في هذا اللسان نفسه وحوالي النصف الأول من القرن الثالث الهجرى - نهاية النصف الأول من القرن التاسع الميلادى - كان ديونيسيوس معروفا من نهر دجلة إلى المحيط الأطلسي

وكان إلى جانب التراث العلمي مسارب أخرى ، انتقلت بواسطتها مذاهب « الفيض Emanation » و « الأشـــراق Humination » و « المـــعرفة Gnosis » و « الجذب Ecstasy » . على أنا قدمنا للقارئ مافيه مقنع ، من أن الأفكار الصوفية الأغريقية ، كان يعبق بها الجو يومئذ ؛ وكان الوصول إليها سهلا ميسورًا على السكان المسلمين ؛ في غربي آسيا ، وفي مصر ، حيث تشكلت الثيوصوفية الصوفية

وقد قيل عن ذي النون المصرى - وله القدم الأولى في نمو الصوفية - إنه فيلسوف وإنه كيماوى [٢] . ومعنى ذلك أنه تتلمذ للعلم الهلينستي فإذا

= Encyclopaedia Britannica; V. 12; P. 800

وكذلك تاريخ الأدب السرياني ص ١٤٨ ومابعدها

(١) يوحنا سكوتس إريجينا ولد في اسكتلندا ، في مفتتح القرن التاسع الميلادى وتوفى حوالى سنة ٨٨٠ م ، أخذ بنصيب وافر في المجادلات ، والمنازعات الدينية ، الناشبة في وقته . وكان له تأثير واضح ، رغم القرار الذى أصدره البابا نيقولا الأول ضد آرائه

Dictionnaire de Theologie Catholique; V. 5; P. 461

(٢) يقول القفطي « ذو النون من طبقة جابر بن حيان ، في انتحال صناعة الكيمياء ، =

أضيف إلى هذا أن أكثر آرائه تتفق ومانجد - مثلا - فى كتابات ديونيسيوس ؛ جرنا ذلك حتما إلى الجزم بأن الأفلاطونية الحديثة قد صبت على الإسلام صبغة من العنصر الصوفى عينه ؛ الذى صبغت به المسيحية من قبل ؛ وذلك محتمل جدًّا كما أثبت فيما سلف

٣ - الغنوصية [١]

إنه وإن أعوزنا الدليل الحاسم هنا ، فإن المقام الملحوظ الذى تحتله نظرية « المعرفة Gnosis » فى تفكير الصوفية الأولين ، تفترض اتصالا بالغنوصية المسيحية

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن والدى « معروف الكرخى » الذى ذكر تعريفه للصوفية ، فى صدر هذه المقدمة ، بأنه « الأخذ بالحقائق » [٢] كانا صابئين - يعنى نسطوريين [٣] - يقيمان فى البطائح البابلية ، بين « واسط » و « البصرة »

وآخرون من أولياء المسلمين قد تعلموا « اسم الله الأعظم » فقد علمه إبراهيمَ بنَ أدهم [٤] رجلٌ لقيه ، وهو على سفر فى الصحراء ، فلم يكد يتلفظه حتى رأى الخضر « إلياس »

= وتقلد علم الباطن ، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة »

القفطى أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٢٧ س ٦

ويقول ابن النديم « ذو النون كان متصوفا ، وله أثر فى الصنعة ، وكتب مصنفة فمن كتبه « الركن الأكبر » « كتاب الثقة فى الصنعة »

ابن النديم الفهرست جـ ٢ ص ٣٥٨ س ٣ - ٥

ويقول حاجى خليفة « قصيدة ذى النون المصرى فى الصنعة - صنعة الكيمياء - شرحها الإمام أيدمير بن على بن أيدمير الجلدكى وسماه « الدر المكنون »

حاجى خليفة كشف الظنون جـ ٤ ص ٥٣٨ س ٤ - ١٠

(١) جولدزيهر فى مقاله العنصر الغنوصى والأفلطونى الجديد فى الحديث

Neoplalonishe und gnostishe im Hadit. Zeitschrift für Assyriolgie XXII.

(٢) القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٦٥ س ٢٢

(٣) المصدر السابق ص ١٢ س ١ - ١٠

(٤) المصدر السابق ص ١٠ س ٦ - ٨

واستعار الصوفية المتقدمون من المانوية لفظ « صدّيق » التى أطلقوها على شيوخهم فى الله واعتقدت مدرسة متأخرة ، أن اختلاف ظواهر الأشياء ، ناتج عن اختـــلاف النور والظلمـــة ، راجعة بذلك إلى « ثنوية مانى » [١] يقول محمد إقبال [٢] « إن المثل الأعلى الذى ، يهدف إليه العمل الإنسانى ، هو التجرد من لوثة الظلمة وتجرد النور من الظلمة ، معناه أن تدرك النفس النور نورا »

والنص التالى لمذهب السبعين ألف حجاب ، كما شرحه درويش رفاعى محدث ، يعرض آثارا واضحة للغنوصية ولا أكاد أجد مناصا من ذكره كاملا هنا لبالغ أهميته

« سبعون ألف حجاب تفصل بين الله - الحق الأحد - وبين عالم الحس والمادة وكل روح تمر ، قبل مولدها ، خلال هذه السبعين ألفا نصفها الباطن من نور ، ونصفها الظاهر من ظلمة فإذا مرت الروح خلال حجاب من حجب النور تضت عنها حالة من الحالات الربانية ، وإذا مرت خلال حجاب من حجب الظلمة تسربلت حالة من الحالات الدنيوية ومن أجل ذلك يستهل الطفل صارخا . لأن الروح تدرك انفصالها من الله الحق الأحد وإذا بكى الطفل فى منامه ، فذلك لأن الروح تتذكر شيئا مما فقدت . وقد جر اختراق الحجب عليها النسيان ! ومن هنا سمى الإنسان إنسانا . وهو الآن سجين جسمه ، مقطوعا عن الله بهذه الحجب الكثيفة »

---

(١) مانى منشئ نحلة المانوية ولد بماردين ، من بلاد كردستان سنة ٢١٥ م وقد جرى مانى مجرى زرادشت . فى تفسير اختلاط الخير بالشر فى العالم . فادعى أن مافى الكون من خير ، هو خلق قوة خيرة صرف ، هى النور ، وأن مافيه من شر خلق قوة شريرة صرف هى الظلمة وقد توفى مانى سنة ٢٧٦ م

(٢) الشيخ محمد إقبال فى

The development of metaphysics in Persia. P, 150

قال أبو حفص « النفس ظلمة كلها ، سراجها سرها ، ونور سراجها التوفيق فمن لم يصحبه فى سره توفيق من ربه كان ظلمة كله »

القشيرى الرسالة القشيرية ص ٦٥

« وجماع غرض الصوفية – طريق الدراويش – أن تهيئ له مهربا من هذا السجن ، أن ترفع عنه هذه الحجب السبعين ، وأن تعيد إليه الوحدة الأصيلة بالواحد الأحد ، وهو لايزال في جسمه فالجسد لايخلع ، ولكن يصفى ، ويجعل روحانيا فيكون عونا للروح ، لاعقبة في سبيلها إنه كالمعدن الذى يصفى بالنار ويغير والشيخ يخبر مريده بأن عنده سر تغييره يقول له « سنلقيك فى نار الإحساس الروحى وستطفو نقيا » [١]

* * *

٤ - البوذية

قبل الفتح الإسلامى للهند ، فى القرن الرابع الهجرى – الحادى عشر الميلادى – كان للبوذية أثر ملحوظ ، فى فارس الشرقية وفيما وراء النهر [٢] Transoxania فنحن نسمع عن صوامع بوذية مزدهرة ، قامت فى بلخ [٣] ، قصبة خراسان القديمة وبلخ مدينة اشتهرت بعدد من الصوفية ، اتخذوها مقاما لهم والأستاذ « جولدزيهر » [٤] قد لفت الأنظار إلى شئ هام ذلك

---

(١) The way of the Mohammedan Mystic; by W. H. T. Gairdner (Leipzig 1921) P. 9.ff.

(٢) ماوراء النهر ، يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان فما كان فى شرقيه يقال له « بلاد الهياطلة » وفى الإسلام سموه ماوراء النهر وما كان فى غربيه فهو خراسان ، وولاية خوارزم ، وهى إقليم برأسه وليس بما وراء النهر موضع يخلو من مدينة ، أو قرية ، أو زرع ، أو مراعى

مراصد الاطلاع حـ ٣ ص ٣٤

(٣) بلخ مدينة مشهورة بخراسان ، من أجمل مدنها ، وأشهرها ذكرا ، وأكثرها خيرا وبينها وبين ترمذ اثنى عشر فرسخا ويقال لجيحون « نهر بلخ » وهى على الشاطئ الجنوبى لنهر جيحون ، على رافده « دهاس » الذى لا يتصل به الآن وقد كانت بلخ القصبة السياسية لولاية خراسان القديمة ثم أصبحت المركز الثقافى والدينى لمملكة طخارستان

مراصد الاطلاع حـ ١ ص ١٦٨

دائرة المعارف الإسلامية مادة بلخ

(٤) جولدزيهر العقيدة والشريعة فى الإسلام . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ، والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور على حسن عبد القادر ص ١١٩

أن الزاهد الصوفى إبراهيم بن أدهم [١] يبدو ، فى الرواية الإسلامية ، أميرا لبلخ ، تخلى عن عرشه وأضحى درويشًا متنقلا وما ذلك إلا تكرارًا لقصة « بوذا »

وقد تعلم الصوفية من أحبار البوذيين استعمال المسابح ونستطيع أن نؤكد فى اطمئنان ، دون أن نعرض للتفاصيل ، أن طريق الصوفية من ناحية كونها تثقيفًا خلقيًا للنفس ، وتأملا زهديًا ، وتحررًا عقليا ، مدينة بالكثير للبوذية

بيد أن النواحى التى تتفق فيها الطريقتان ، سرعان ماتكشف عن الخلاف الأصيل بينهما فهما - فى روحيهما - متعارضتان ، البوذى يقوّم نفسه بنفسه ؛ أما الصوفى فيقوم نفسه بمعرفة ربه ، وحبه

والفكرة الصوفية ، فى فناء النفس الذاتية فى الوجود الكلى ، هى عندى - دون ريب - من أصل هندى ولعل ممثلها الأول العظيم أبو يزيد البسطامى [٢] الصوفى الفارسى ، قد تلقاها عن شيخه أبى على السندى وهذه بعض أقواله :-

١ - للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ؛ لأنه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره [٣]

---

(١) أبو إسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور ، من كورة بلخ كان من أبناء الملوك ، ثم تزهد وذلك أنه خرج يوم متصيدا ، فأثار ثعلبا أو أرنبا ، وهو فى طلبه فهتف به هاتف ياإبراهيم ! ألهذا خلقت ؟! أم بهذا أمرت ؟! ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه « والله مالهذا خلقت ! ولا بهذا أمرت ! فنزل عن دابته وصادف راعيا لأبيه فأخذ جبة الراعى ، وكانت من صوف ، فلبسها وأعطاه فرسه ، وما معه ، ودخل البادية ثم دخل مكة ، وصحب بها سفيان الثورى ، والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها سنة ١٦٢ هـ

الرسالة القشيرية ص ١٠ ،

(٢) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامى ، وأحيانا يلقب بالبسطامى الأكبر ، تمييزا له من أبى يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على البسطامى ، ويلقب بالبسطامى الأصغر ، منسوب إلى بسطام بلدة مشهورة بقومس . كان جده مجوسيا فأسلم . مات أبو يزيد سنة إحدى وستين ومائتين وقيل أربع وثلاثين ومائتين . ابن الأثير : اللباب جـ ١ ص ١٢٣ ، ١٢٤

القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٧

(٣) القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٨٤ س ٢٠ - ٢٢

٢ - غبت عن الله ثلاثين سنة وكانت غيبتي عنه ذكرى إياه فلما خَنَست عنه وجدته فى كل حال حتى كأنه أنا [١]

٣ - ثم تنقلت من إله إلى إله حتى نادوا منى فى « أنت أنا »

وهذه كما ترى ليست « البوذية » إنما هى « حلولية الڤيدنتا Pantheism of Vedanta » [٢] ولسنا نوحّد « الفناء » و « النرفانا » من كل وجه ، لأن كلا الاصطلاحين يدل على فناء الشخصية ، بل إن « النرفانا » سلبية خالصة و « الفناء » يصحبه « البقاء » أى الحياة الخالدة فى الله

وانجذاب الصوفى ، الذى تعرى عن نفسه ، فى التأمل الانجذابى ، للجمال الربانى معارض تماما لهدوء « الأرهات The Arhat » العقلى الخالى عن الشعور

وأنا أؤكد هذه المعارضة ، لأنه قد غولى كثيرا - فى رأيى - فى تقدير تأثير البوذية على التفكير الإسلامى وكثير مما عزى إلى البوذية ، هندى أكثر منه بوذى تعيينا ونظرية « الفناء » الصوفية خير مثل على ذلك والعامة من المسلمين ينظرون فى كراهية إلى أشياع « بوذا » ويرونهم وثنيين ؛ فليس من القريب ولا من المحتمل ، أن يعقدوا معهم أواصر صلة

على أن البوذية قد سادت خراسان ، قبل الفتح الإسلامى بألف عام ، كما سادت فى فارس الشرقية عموما ومن هنا كان لابد أن تؤثر فى نمو الصوفية فى هذه الأصقاع

والفناء - من وجهه الحلولى - وإن اختلف تماما من « النرفانا » إلا أنه متفق معه تمام الاتفاق من الوجوه الأخرى ، حتى لانستطيع أن نعتبرهما منفصلين تماما. فللفناء وجه أخلاقى ، إذ يستلزم إفناء جميع المشاعر والرغبات وقد قيل « إن فناء الصفات الشريرة ، والأفعال الفاسدة التى تنتج عنها ؛ إنما يجئ من استدامة الاتصال بالصفات الحميدة والأفعال

---

(١) أبو نعيم حلية الأولياء حـ ١٠ ص ٣٥ س ١٤ - ٨

(٢) الڤيدنتا كلمة سنسكريتية معناها غاية هدف الڤيدا ، وهى تستخدم فى الدلالة على طرق البراهمة الفلسفية الست (السنخيا ، اليوجا ، الميماصا ، الڤيدنتا ، الفيشصكا ، النيايا) وفى الڤيدنتا وضع مذهب الحلول على أسس فلسفية وتدعمت أركانه

Incyclopeedia of Religion & Ethics. V.12, P. 597

الحسنة » وللك أن توازن هذا بالتعريف الذى ذكره الأستاذ « رايز دافيدس Rhys Davids » للنرفانا

« هى فناء هذه الحال الشريرة ، التى تتملك العقل والقلب ، والتى تكون سببا إلى الوجود الشخصى المتجدد « التناسخ » وذلك طبقا لسر مذهب « الكرما العظيم Karma» [١] وهذا الإفناء إنما يجئ من نمو حال العقل والقلب المعارضة ، ويتفق معها ، ولا يتم إلاّ إذا بلغت هذه الحال المعارضة غايتها »

فإذا صرفنا النظر عن مذهب « الكرما » الذى لايلتئم مع الصوفية ؛ طابق الفناء – على أنه حالة أخلاقية – النرفانا ، طباقا يكاد أن يكون كلمة لكلمة . وليس هنا موضع استقصاء هذه الموازنة ولعلنا نستطيع أن نقول ؛ « إن نظرية الفناء الصوفية قد تأثرت – إلى حد مـــا – بالبوذية كمـــا تأثرت بالحلولية الهندية الفارسية

« Perso - Indian Pantheism »

وتقبل الإسلام للأفكار الأجنبية ، قد اعترف به كل باحث آخر وما تاريخ الصوفية إلا مثل واحد للقاعدة العامة ولكن هذه الحقيقة ينبغي ألا تدفعنا إلى أن نتطلب ، في مثل هذه الأفكار ، إيضاحا لجميع هذا الأمر ، الذى نحن بصدده ؛ أو أن نجعل الصوفية هى نفس العناصر الغريبة التى تشربتها وتمثلتها خلال عهد نموها

فلو أن المعجزة وقعت ، وانقطع الإسلام تماما عن كل صلة بالأديان والفلسفات الأجنبية ، لكان من الحتم أن يقوم فيه لون من التصوف ، ذلك لأن فيه بذورها وليس فى طوقنا أن نفرد القوى الداخلية ، التى تعمل فى هذا الاتجاه مادامت خاضعة لقانون الجاذبية الروحية وتيارات التفكير القوية ، التى انصبت داخل العالم الإسلامى ، من النحل غير الإسلامية التى تقدم ذكرها ، دفعت الاتجاهات المختلفة فى الإسلام ، تلك الاتجاهات التى

---

(١) الكرما نظرية هندية ، تشرح سر الشقاء الانسانى فقد أرجعته إلى ذنوب قديمة ، يكفر الناس عنها ، عن طريق تناسخ الأرواح ولكنها لاتحل نشأة هذا الشقاء

Incyclopaedia of Religion & Ethics. Art. Karma

أثرت فى الصوفية إيجابا أو سلبًا ولقد رأيناها – فى أقدم طابع لها – ثورة زاهدة على النعيم ومتاع الدنيا . ثم كانت « العقلية السائدة Rationalism » و « الشكية Scepticism » اللتان استثارتا حركات مضادة لهما صوب « الإلهام Intuitive Knowledge» وإيمان التسليم والعاطفة ؛ كما أثارتا رد فعل سنى ، دفع بدوره كثيرًا من نوابغ المسلمين إلى صفوف الصوفية

ولعله أن يقال كيف يمكن لدين أقامه محمد على التوحيد الخالص المتشدد ، أن يصبر على هذه النحل الجديدة ، بله أن يكون معها على وفاق ؟

وإنه ليبدو أن ليس فى الوسع التوفيق بين « الشخصية الإلهية المنزهة Transcendent Personality of Allah » وبين « الحقيقة الباطنة الموجودة فى كل شئ The Immanent Reality » التى هى حياة العالم وروحه وبرغم هذا فالصوفية بدل أن يطردوا من دائرة الإسلام قد تقبلوا فيها وفى (تذكرة الأولياء) شواهد على الشطحات الغالية للحلولية الشرقية

* * *

ولنعد حينًا إلى القرآن ، بذلك المحك الذى لايخطئ ، والذى يجب أن يوزن به كل رأى أو علم إسلامى ، هل نجد فيه أصولا للتصوف ؟

يبدأ القرآن – كما ذكرت – بفكرة « الله » الواحد الصمد ، الإله القادر الذى تنزه عن المشاعر والميول البشرية ، وهو سيد عباده ، لا والد أبنائه ، والقاضى الذى ينزل بالآثمين عدلا رادعا ، ويبسط رحمته على من يتقون غضبه بالتوبة والخضوع ، وأعمال البر يواصلونها ، فهو « إله خوف » أكثر منه « إله حب »

هذا جانب من رسالة محمد وهو – دون ريب – أهم الجوانب بيد أن محمدا ، برغم إقامته هوة شاسعة بين العالم وبين الله ، فإن فطرته العميقة أوجدت وحيا مباشرا من الله للروح ؛ وليس فى هذا مفارقات فى منطق الإحساس . ومحمد – وقد كان فيه بعض مافى الصوفى – أحس الله قريبا ، وأحسه بعيدا ؛ متعاليا عن الكون ، وموجودًا فيه

فهو من الوجه الأخير ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور الآية ٣٥] وهو الموجود الذى يتصرف فى الكون ، وفى روح الإنسان ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة الآية ١٨٦] ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : الآيـة ١٦] ، ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ، وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات الآيات ٢٠ ، ٢١] ولقد طال عليهم الأمد قبل أن يصرروا !! فإن التفكير الإسلامى ، وقد فزعته الرُّؤى المخيفة لغضب الله الذى سينزل بالمذنبين ، قد تنبه فى بطءٍ وعسر لأهمية هذه الأفكار الحرة

والآيات التى سقتها لاتقوم وحيدة والقرآن مهما يكن مغاضبًا للتصوف ، فإنى لأكاد أجد عندى القبول ، للرأى الذى يذهب إلى أن ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام وقد أبان ذلك أتم البيان الصوفية الذين عالجوا القرآن ، إلى حد بعيد ، على النحو الذى عالج به « فيلون [١] Philo أسفار موسى Pentateuch » [٢] بيد أنه لم يكن ليقيض لهم النجاح الكامل فى اجتذاب جمهرة المتدينين من المسلمين إلى صفوفهم ؛ لولا أن رءوس أهل السنة بدأوا يشيدون بناء من الفلسفة المدرسية ، ردت الطبيعة الإلهية إلى وحدة صرفة ، جامدة لاتتغير ، وإرادة مجردة ، قد حرمت من جميع العواطف والمشاعر ، وقدرة خارقة تعز على الحصر لا يستطيع بشر أن يعقد معها أواصر صلة شخصية أياما كانت

هذا هو إله علم الكلام . ومن هنا كان الخيار ، فاختيرت الصوفية ومن هنا كانت « جمهرة المفكرين ، من متدينى المسلمين ، صوفية وكانوا كلهم كذلك حلوليين وقليل من يفطن إلى ذلك » كما يقول الأستاذ « دنكـــان مكادونالد D. B. Macdonald » وهو الحجة الثقة بين من تصدوا لهذا الموضوع

* *

---

(١) فيلسوف يونانى ، من أصل يهودى ولد بالاسكندرية ، حوالى سنة ٢٠ ق م وفلسفته مزيج من فلسفة أفلاطون ومن التوراة وكان له أثر واضح على الأفلاطونية الحديثة وعلى الأدب المسيحى

(٢) أسفار موسى الخمسة ، هى الأسفار الأولى من العهد القديم وهى سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، سفر التثنية

وصلة أشخاص الصوفية بالإسلام تختلف من استمساك بالإيمان بالله ورسوله يزيد أو ينقص ، إلى اعتراف ظاهرى به . وبينما يعترف عموما للقرآن والحديث بأنهما المقياس الذى لا يتغير للحقيقة الدينية ؛ فإن ذلك لا يشمل الاعتراف لأى سلطان خارجى ؛ ليقرر أن هذا موافق للشريعة ، وأن ذلك مخالف لها والرسوم العقيدية والجدلية لا أهمية لها فى تقدير الصوفى وكيف يشغل نفسه بها وعنده العقيدة التى أخذها عن الله مباشرة [١] ؟ وهو إذ يقرأ القرآن – فى تمعن وتأمل – تنثال على عينه الباطنة معانيه الخبيئة ، لا مقطوعة ولا محدودة ذلك مايسميه الصوفية « الاستنباط » وهو نوع من المعرفة البديهية ، انصباب للعلم الإلهى المنكشف ، فى قلوب صفيت بالندم ، وامتلأت بالتفكير فى الله ، واخراج لذلك اللم على اللسان المترجم

ومن الطبيعى ألا تتفق المذاهب التى قامت على أسس الاستنباط مع أنفسها ، أو مع علم الكلام . ومن السهل تفسير الاختلاف ؛ فعلماء الكلام ، الذين يفسرون « المبنى » ، لم يكن من المتوقع أن يصلوا إلى نفس النتائج التى يصل إليها الصوفية ، الذين يفسرون « المعنى » وإذا اختلفت كلتا الفرقتين على نفسها فذلك تعميم رحيم للحكمة الإلهية ؛ من حيث أن الجدل الكلامى إنما كان ليقضى على الخطأ الدينى ؛ أما تنوع الحقيقة الصوفية فإنما كان لموافقة الأساليب ، والدرجات المتعددة للرياضة الصوفية .

وسأفصل ماأجملته من موقف الصوفية تجاه الدين الإيجابى ولكن يقال اجمالا أن كثيرين منهم كانوا من خيار المسلمين ، وإن كثيرين منهم لم يكونوا مسلمين اطلاقا ، وطائفة ثالثة – ولعلها أن تكون أكبر الثلاثة – مسلمة تقليدًا

وفى خلال العصور الوسطى الباكرة ، غدا الإسلام كائنا ناميا ، ثم تغير تدريجا ، تحت تأثير الحركات المتضـــاربة ، التى كانت الصـوفية واحدة منها . و « السنية » – فى شكلها الحاضر – مدينة بالكثير للغزالى [٢] ، وليس

---

(١) قال أبو يزيد البسطامى لعلماء عصره « تأخذون علمكم ميتا عن ميت ونأخذ علمنا عن الحى الذى لايموت »

حسن العدوى شرح البردة ، القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ جـ ٢ ص ٧٦

(٢) الإمام أبو حامد محمـــد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسى ، الإمام الجليل =

الغزالى إلا صوفيا . فبتآليفه وسلوكه ، غدا التفسيرُ الصوفيُّ للإسلام – إلى حد كبير – موفقا بين المطالب المتعارضة للعقل والنقل وبسبب ذلك كان الغزالى أقل فائدة من الصوفية الخالصى اللون . للدارس الذى يريد أن يعرف ماذا تكون الصوفية أصلا

والتعارف المتعددة للصوفية التى وردت فى الكتب العربية والفارسية وإن كانت ذات فائدة تاريخية فإن أهميتها الرئيسية فى أنها تعرض الصوفية على أنها غير ممكن تحديدها وقد قص جلال الدين الرومى فى كتابه « المثنوى » [١] قصة عن فيل عرضه بعض الهندوسين فى حجرة مظلمة فتجمع الناس ليروه . ولكن ظلام المكان منعهم أن يبصروه . فلمسوه بأيديهم ليعلموا على أى مثال هو : فلمس بعضهم خرطومة فقال إنه يشبه أنبوبة الماء وبعضهم أذنه فقال لابد أن يكون كمروحة كبيرة وآخر رجله فحسب أنه كالسارية ولمس بعضهم ظهرهُ ، فأعلن أن الحيوان لابد أن يشبه العرش العظيم وكذلك حال الذين يعرضون للتصوف بالتعريف لايستطيعون إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسته نفوسهم ولن يكون تعريف مفهوم يضم كل خفية من الشعور الدينى المستكن لكل فرد وما دامت هذه التعريفات – على أى حال – تصور فى اختصار لائق ، بعض وجوه

= وحجة الإسلام فى المنقول والمفهوم ، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه ، فى دكانه بطوس ، ومن هنا قيل له « الغزالى » بتشديد الزاى على عادة أهل جرجان وخوارزم فى النسبة وقيل أنه بالتخفيف ، نسبة إلى غزالة ، قرية من قرى طوس . من أشهر مؤلفاته (احياء علوم الدين) مات سنة خمس وخمسمائة

السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ ص ١٠١ – ١٨٢

(١) صاحب هذا الكتاب جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين البلخى الرومى شاعر صوفى ، فارسى مشهور ، طار ذكره بهذا الكتاب « مثنوى معنوى » وقد ترجم هذا الكتاب إلى التركية ، والعربية ، والهندستانية ، والإنجليزية وغيرها فترجمه نثرا إلى التركية اسماعيل الأنقراوى وسماه « فاتح الأبيات » وطبع فى بولاق سنة ١٢٥١ هـ وفى الآستانة سنة ١٢٨٩ هـ . وترجمه إلى التركية شعرا ، اسماعيل النحيفى وترجمه إلى العربية نثرا ، يوسف ابن أحمد المولوى ، وسماه « المنهج القوى لطلاب المثنوى بولاق سنة ١٢٨٩ » وقد نشر الأصل الفارسى ومعه ترجمة إلى الإنجليزية ، الأستاذ الدكتور نيكلسون سنة ١٩٢٤ – ١٩٤٠ فى سلسلة « جب » التذكارية

التصوف وخصائصه فسنعرض ألوانا قليلة منها

١ - الصوفية هي أن الأفعال التي تقع على الصوفي لا يعلمها أحد إلا الله وأن يكون مع ربه على نحو لا يعلمه أحد إلا الله وحده

٢ - قال أبو محمد الجريري [١] « التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب » [٢]

٣ - قال سمنون [٣] « التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شئ » [٤]

٤ - قال النوري [٥] « ليس التصوف برسوم ولا علوم ؟ ولكنها أخلاق » [٦] أي أنه إن كانت هناك قاعدة سلوكية لشخص فهي نتاج لمجهوده العنيف وإن كان هناك علم فهو نتاج تعلمه أما الصوفية فعلى خلاف ذلك إنها نهج موافق لقول الرسول « تخلقوا بأخلاق الله » وأخلاق الله لن يوصل إليها بأسباب من القواعد ولا بأسباب من العلم

٥ - وقال الجريري « التصوف ، الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني » [٧]

---

(١) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري ، من كبار أصحاب الجنيد صحب سهل بن عبد الله ، وأقعد بعد الجنيد في مكانه . وكان عالما بعلوم الصوفية مات سنة إحدى عشرة وثلثمائة القشيري الرسالة القشيرية ص ٢٠ س ٢٤ - ٢٧

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٦ س ١٣

(٣) أبو الحسن سمنون بن حمزة صحب سريا السقطي ، وأبا أحمد القلانسي ، ومحمد بن علي القصاب وغيرهم وكان سمنون ظريف الخلق أكثر كلامه في المحبة وكان كبير الشأن ، مات قبل الجنيد

القشيري الرسالة القشيرية ص ٢٨ س ١٤ - ٢٩

(٤) المصدر نفسه : ص ١٦٥ س ٢٠ . وكذلك ، أبو نصر السراج الطوسي : اللمع ص ٢٥

(٥) أبو الحسين أحمد بن محمد النوري بغدادي المولد والمنشأ ، بغوي الأصل صحب السري السقطي ، وابن أبي الحواري وكان من أقران الجنيد مات سنة خمس وتسعين ومائتين

القشيري الرسالة القشيرية ص ٢٦ س ٦ - ٩

(٦) السلمي طبقات الصوفية ورقة ٤١ ظ

(٧) أبو نصر السراج اللمع ص ٢٦

٦ - وقال الجنيد [١] « التصوف ، أن يميتك الحـق عنك ويحييك به » [٢]

٧ - قال أبو يعقوب المزابلى « التصـــوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية » [٣]

٨ - وقال أبو الحسن السيـــروانى « الصـــوفى يكون مع الواردات لامع الأوراد » [٤]

٩ - وقال أبو بكر الشبلى [٥] « التصـــوف ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك » [٦]

وقال رويم البغدادى [٧] التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار » [٨]

ولابد أن القارئ قد لاحظ أن « الصوفية » كلمة تجمع معانى كثيرة ، وأن من يتصدى لرسم معالمها الرئيسية ، إنما يكون مسوقا إلى رسم ضروب

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد . أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق . وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريرى . وكان فقيها على مذهب أبى ثور . صحب خاله سريا السقطى ، والحارث المحاسبى ، ومحمد بن على القصاب . مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

القشيرى الرسالة القشيرية ص ٢٤ س ١٢ - ١٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ س ١٢

(٣) القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٦٦ س ٢٦ ، ٢٧

(٤) القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٦٦ س ٢٧ ، ٢٨

(٥) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من أشروسنة صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان نسيج وحده ، حالا وظرفا وعلما مالكى المذهب عاش سبعا وثمانين سنة ومات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وقبره ببغداد

القشيرى الرسالة القشيرية ص ٣٣ س ٢٥ - ٣٠

(٦) السلمى طبقات الصوفية ورقة ٨٤

(٧) أبو محمد رويم بن أحمد بغدادى من أجلة المشايخ مات سنة ثلاث وثلثمائة وكان مقرئا ، فقيها على مذهب داود

القشيرى الرسالة القشيرية ص ٢٧ س ١ - ٣

(٨) المصدر نفسه ص ١٦٥ س ٢٤ - ٢٦

من الصور المعقدة ، التى لا تمثل طابعا معينا أبدا ، وليست الصوفية فرقة ، ولم يكن لهم مذهب مرسوم فى العقائد وطرقهم التى يبحثون بها عن الله « متعددة تعدد أرواح الخلق » وتختلف إلى غير نهاية ، على أنه يمكن تتبع رابطة القرابة بينها

وأوصاف هذه الظاهرة المتغيرة ، لابد أن تختلف اختلافا واسعا ، بين فرد وآخر . والأثر الذى ينتج فى كل حالة ؛ لابد أن يتوقف على اختيار المواد ، والأهمية التى تعطى لهذا الوجه أو ذاك ، من الكل المتعدد الوجوه

وقد استبان الآن أتم استبانة ، جوهرُ الصوفية فى أقصى أنموذج لها ؛ ذلك الأنموذج الذى هو حلولى تأملى ، أكثر منه زهدى ورع

* * *

ومن هنا وضعت هذا الأنموذج - عن قصد - فى صدر الحديث ومزية تحديد موضوع البحث غير منكورة ؛ ولكنها تجر بعض الخسران على الموضوع ولكى نُكَوِّن حكمًا عادلاً على التصوف الإسلامى ، سأذيل الفصول التالية بصورة مصاحبة ، رُسمت خصيصا من هذه الأنواع الهادئة ؛ التى اضطرنى ضيق المكان إلى إغفالها آسفا

* * *

الفصل الأول

الطريق

وصف متصوفة كل جنس ونحلة ، تقدم الحياة الروحية ، بأنه « رحلة ، أو حج » وقد استعمل - للدلالة على الغرض عينه - رموز أخرى ، بيد أنه بقى لهذه شيوعها العالمى تقريبًا فى ناحيتها

والصوفى الذى يبدأ رحلته ، بغية البحث عن ربه ، يدعو نفسه « سالكا » يتقدم فى « مقامـات » رتيبة ، خلال « طــريق » يهدف بعده إلى « الفناء فى الحق » فإن هو حاول أن يرسم خطة هذا الاستعلاء الروحى ، فسوف لا تتطابق تماما وما رسمه الرواد الآخرون

وخطط التحقق هذه ، قد بينها شيوخ الصوفية فى عهد باكر ولكن العادة الإسلامية السيئة ، التى ترمى إلى تقعيد كل شئ وتنظيمه ، أنتجت لنا أعقابا عديدة .

و « الطريق » الذى بينه مؤلف كتاب « اللمع » [1] - ولعل هذا الكتاب أن يكون أقدم بحث مفهوم لدينا عن الصوفية - مكون من المقامات السبع التاليه التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا [2] وكل واحدة منها - غير الأولى - نتيجة للسابقة عليها وهذه المقامات

---

(١) هو الشيخ أبو نصر ، عبد الله بن على بن محمد بن يحيى السراج الطوسى الصوفى مصنف كتاب « اللمع فى التصوف » سمع جعفر الخلدى ، وأبا بكر محمد بن داود الدقى . وأحمد بن محمد السائح روى عنه أبو سعيد محمد بن على النقاش ، وعبد الرحمن بن محمد السراج ؛ وغيرهم قال السلمى كان أبو نصر من أولاد الزهاد وكان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة . وهو فقيه مشايخهم اليوم » ومات أبوه ساجدا ، ومات هو فى رجب سنة ثمان وسبعين وثلثمائة (اكتوبر - نوفمبر سنة ٩٨٨ م)

الذهبى تاريخ الإسلام سنة ثمان وسبعين وثلثمائة

(٢) أبو نصر السراج اللمع ص ٤١ - ٥٤

السبع جماع التربية الخلقية والزهدية للصوفي ويجب أن تميّز في عناية مما يسمونه « الأحوال » [١] التي تؤلف سلسلة نفسية مماثلة والمؤلف الذي نقلتُ عنه آنفا يذكر أحوالاً عشرة ، وهي المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة ، واليقين [٢]

وإذا كانت المقامات تنال بمجهود الشخص ، فإن الأحوال تبقى رتب ومشاعر روحية لايملك الشخص من أمرها شيئا « ليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات ، بل هي نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم » [٣]

ولا تتم طريق الصوفي حتى يعبر جميع المقامات ، مكملا نفسه بكل مقام قبل أن يدعه إلى تاليه ، متمرسًا بالحال ، الذي تفضل الله فأسبغه عليه ، وبعدئذ فقط يكون قد رقى إلى الدرجات العالية من الإدراك ، التي يسميها الصوفية « معرفة » و « حقيقة » ، حيث يصير الطالب عارفا ، ويتحقق أن العلم ، والعالم ، شئ واحد

وإذ رسمت – مختصرًا ما استطعت الاختصار – الإطار الخارجي للطريق التي يقترب بها الصوفي من غرضه ، فسأحاول الآن أن أقدم شيئا من أعمالها الداخلية وهذا الفصل يعالج الجزء الأول من رحلة ثلاثية الأجزاء الطريق ، والمعرفة ، والحق وكثيرا مامثل بها البحث عن الحقيقة

التوبة

تنزل التوبة المحل الأول في جميع قوائم « المقامات » و « التوبة » هي

---

(١) الحال – عند الصوفية – معنى يرد على القلب من غير تعمد ، ولا اجتلاب ولا اكتساب والمقام مايتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ، ومقاساة تكلف فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود

الرسالة القشيرية ص ٤١ ، ٤٢

(٢) أبو نصر السراج اللمع ص ٥٤ – ٧٢

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ س ٨ – ٢٠

الاصطلاح الإسلامى المقابل لكلمة « Conversion » وبها يبدأ السالك حياة جديدة

وكثيرا ماتروى فى تراجم كبار الصوفية الأحلام والرؤى ، والهواتف ، وأمثال ذلك ، مما كان سببا فى سلوكهم « الطريق » . وهذه الروايات – على مايبدو عليها من تفاهة – ذات أصل سيكولوجى ؛ وهى جديرة أن تدرس فى تفصيل ، إن ثبتت صحتها وقد وصفت التوبة بأنها « انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحالة .. فإذا فكر بقلبه فى سوء مايصنعه ، وأبصر ماهو عليه من قبيح الأفعال ، سنح فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاع عن قبيح المعاملة [١] وشرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء الندم على ماعمل من المخالفات ، وترك الزلة فى الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ماعمل من المعاصى » [٢] فإن لم يستطع أن يلزم نفسه ذلك توجه إلى الله ، ورحمة الله واسعة وقد تاب صوفى مشهور سبعين مرة ، وانتكس فى الإثم فى كل مرة ، قبل أن يعقد توبته الأخيرة

وعلى التائب أن يسترضى جميع الذين أصابهم بضرر ، ماوسعه الاسترضاء ومن المستطاع سوق أمثلة عديدة على هذا الاسترضاء من « تذكرة الأولياء » [٣]

والتوبة – طبقا لنظرية صوفية عالية – ليست إلا منحة إلٰهية ، تأتى من الله للعبد ، لامن العبد لله قال رجل لرابعة [٤] إنى قد أكثرت من الذنوب

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٠ س ٥ – ١٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥٩ س ٧ – ٣٠

(٣) مؤلف هذا الكتاب ، هو الصوفى الفارسى الشهير ، أبو حامد محمد بن أبى بكر إبراهيم ، فريد الدين العطار ولد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فى كادكر ، إحدى قرى نيسابور . وكان أبوه عطارا ، فاشتغل بصناعة والده . وقد مات العطار مذبوحا ، ذبحه المغول سنة سبع وعشرين وستمائة أما كتابه « تذكرة الأولياء » فقد نشره الأستاذ نيكلسون سنة ١٩٠٥ فى مجلدين فى سلسلة « جب » التذكارية

(٤) أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة كانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة وذكر ابن الجوزى فى كتابه : « شذور العقود » أن وفاتها كانت سنة خمس وثلاثين ومائة . وذكر غيره ، أنها ماتت =

والمعاصى فلو تبت هل يتوب الله على ؟ » فقالت « بل لو تاب عليك لتبت ! » [١]

ووجوب تذكر الآثام أو نسيانها بعد التوبة ، مسألة تكشف عن نقطة أصيلة فى علم الأخلاق الصوفى وأنا أعنى الفرق بين مايعلَّم للأتباع والمريدين ، وبين ما يمسك عنهم على أنه مذهب خاص بالشيوخ وكل مرشد روحى مسلم يخبر مريديه أن أسى الإنسان ، وندمه على مافرط منه من آثام ، هو خير دواء لداء الغرور الروحى بيد أنه يعتقد أن التوبة الصحيحة فى نسيان كل شئ ماخلا الله يقول الهجويرى « التائب حبيب الله ، وحبيب الله فى الشهود ، ومن العيب أن تتذكر الآثام فى الشهود ؛ لأن تذكر الإثم حجاب بين الله وبين من يشهده » [٢] ذلك لأن بين الإثم ووجود النفس آصرة ووجود النفس أكبر الآثام

وليس هذا غير تطبيق واحد للقاعدة ، التى تخلل – كما ذكرت – جميع النظام الأخلاقى للصوفية وسأبينها أكمل بيان فى فصل تال وأخطارها محققة ، ولكن من العدالة أن تقر أن نظرية السلوك عينها ، لا يستوى عندها أولئك الذين كملت نفوسهم فى التربية الخلقية ، وهؤلاء الذين يجهدون فى سبيل الكمال

مكتوب على باب التوبة « أيها الداخلون دعوا أنفسكم وراءكم »

الشيخ

والسالك يبدأ – الآن – ما يسميه متصوفة المسيحية « طريق التطهر The purgative way » والقاعدة العامة أن يتخذ له هاديًا – شيخًا أو مرشدًا –

= سنة خمس وثمانين ومائة وقبرها بظاهر القدس من شرقية ، على رأس جبل يسمى الطور .
ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

(١) القشيرى الرسالة ص ٦٢ س ٢٨ – ٣١

(٢) قال الجنيد دخلت على السرى يوما ، فرأيته متغيرا ، فقلت له مالك ؟! فقال دخل على شاب ، فسألنى عن التوبة ، فقلت له : ألا تنسى ذنبك فعارضنى ، وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك ! فقلت : إن الأمر عندى ماقال الشاب فقال لم ؟ قلت لأنى إذا كنت فى حال الجفاء ، فنقلنى إلى حال الوفاء ، فذكر الجفاء فى حال الصفاء جفاء فسكت »
القشيرى الرسالة القشيرية ص ٦١ س ٢٧ – ٣٠

أى رجلا محنك التجربة ، عميق المعرفة ؛ تقوم كلمته المجردة من مريديه مقام القانون والسالك الذى يحاول أن يعبر « الطريق » دون أن يستعين أحدًا ، لا يلقي شيئًا من الاستحسان ولمثل هذا الرجل يقال إن هاديه الشيطان ؛ وأنه كالشجرة التى تعوزها عناية البستانى ، فهى لاتثمر ؛ فإن أثمرت كان ثمرها خبيثا [١]

يقول الهجويرى – فى حديثه عن شيوخ الصوفية –: « إذا اتصل بهم مريد ، رغبة فى نبذ الدنيا ، أخضعوه ثلاثة أعوام للرياضة والمجاهدة فإن هو أتم مقتضيات هذه المجاهدة ، فَحُبًا وكرامة ؛ وإلا أعلنوه بأنه لن يقبل فى الطريق .

فالسنة الأولى مقصورة على خدمة الخلق ؛ والثانية على خدمة الخالق ؛ والثالثة على مراقبة قلبه ولن يستطيع أن يخدم الناس ، إلا إذا وضع نفسه فى مقام الخدم ، ووضعهم فى مقام السادة ومعنى ذلك أن يرى الناس قاطبة خيرا منه ، وأن يعتقد أن عليه أن يخدم الناس على السواء

ولن يستطيع أن يخدم الله ، إلا بأن يتخلى عن جميع مآربه الذاتية ، سواء منها ما اتصل بحاضر أيامه أو مستقبلها وأن يعبد الله لذات الله فحسب ؛ فإن من يعبد الله ابتغاء شئ ، فإنما يعبد نفسه من دون الله

ولن يستطيع أن يراقب قلبه ، إلا أن يجمع فكره ، ويصرف عنه كل هم ، حتى يكون فى صلته بالله ، على احتراز من مهاجمات التبطل

فإذا حصّل السالك هذه الصفات ، فهو فى حل من أن يلبس « المُرَقّعة » – رداء مرقع يرتديه الدراويش – وهو حينئذ صوفى صادق لامتنحلا متمثلا بالآخرين .

والشبلى – تلميذ الثيو صوفى الشهير ، الجنيد البغدادى [٢] جاء الجنيد ،

---

(١) قال منصور بن عبد الله ، سمعت أبا على الثقفى يقول « لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدب ، أو ناصح . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لايجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات »

الرسالة القشيرية ص ٣٤ س ٢٨ – ٣١

(٢) أبـــــو القاسم الجنيد بن محمد البغدادى أصله من نهاوند ، ومنشأه ومولده =

أول سلوكه الطريق ، وقال له « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربانى ، فإما أن تمنحنيها وإما أن تبيعنيها » فقال له الجنيد « لا أستطيع أن أبيعكها ، فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك ، أخذتها رخيصة ، فلا تعرف قدرها ألق بنفسك - غير هياب - فى عباب هذا المحيط ، مثلما فعلتُ ، لعلك إن صبرت ، أن تظفر بها » فسأله الشبلى عما يفعل ، فقال له الجنيد « إذهب بع الناس كبريتا » وفى ختام العام قال له « لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس ، فكن درويشا ، لا تشغل نفسك بغير السؤال » وفى خلال العام ، كان الشبلى يجوس شوارع بغداد ، يسأل المارة احسانهم ، بيد أن أحدًا لم يأبه له ثم رجع إلى الجنيد ، فقال له « أرأيت الآن ؟! لست فى أعين الناس شيئًا ، فلا تصرف فكرك إليهم ، ولاتقم لهم وزنا . وقد كنت فى بعض أيامك حاجبا [١] ، ثم اشتغلت حاكما لبعض الأقاليم فاغد إليه ، واسأل جميع الذين أسأت إليهم ، أن يعفوا عنك » فأطاع الشبلى وصرف أربعة أعوام ، يذهب من باب إلى باب ، حتى ظفر بالعفو من كل أحد ، إلا واحدًا فشل فى العثور عليه فقال له الجنيد ، حين عاد إليه « لايزال فيك ميل إلى الشهرة ! إذهب واسأل الناس عامًا آخر » وفى كل يوم كان الشبلى يُحضر الصدقات ، التى أعطيت له للجنيد ، فيفرقها بين الفقراء ، ويدع الشبلى من غير طعام ، إلى الصباح القادم . فلما انقضى العام على هذا المنوال ، تقبله الجنيد مريدا من مريديه ، على أن يخدم الآخرين عاما فلما انقضت خدمة العام ، سأله الجنيد « ماتظن فى نفسك الآن ؟! » فأجاب الشبلى « أنا أعد نفسى أحقر

= بالعراق . وكان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له « القواريرى » وكان فقيها على مذهب أبى ثور صحب خاله السرى السقطى ، والحارث المحاسبى ، ومحمد بن على القصاب مات سنة سبع وتسعين ومائتين

الرسالة القشيرية ص ٢١ س ١٢ - ١٦

(١) كان الشبلى حاجب الموفق ، وكان أبوه حاجب الحجاب ، وكان الموفق جعل لطعمته « دماوند » - كورة قرب الرى - فلما ولى الموفق الأمر ، وتاب الشبلى ، رجع إلى « دماوند » وقال « أنا كنت حاجب الموفق ، وكان ولانى بلدتكم هذه فاجعلونى فى حل »

الخطيب تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣٨٩

مخلوقات الله » . فقال شيخه « الآن توثق إيمانك » .

ولست فى حاجة إلى أن أقف عند تفاصيل هذه المجاهدة ! الصيام ، والقيام ، ونذر الصمت ، والأيام والليالى الطوال تقضى فى التفكر والتأمل ، والانقطاع عن الناس ، وعلى الجملة كل الأسلحة والخطط ، التى تستعمل فى معركة جلاد المرء لنفسه ، تلك المعركة التى عدها النبى أشق من الجهاد ، وأجدر بالمثوبة

ولعل القارئ ينتظر منى أن أصف له ، وصفا عاما ، المجاهدات والنظريات الخاصة ، التى غدت لها « الطريق » تصميما مناسبا وستعالج هذه تحت العناوين الآتية الفقر ، مجاهدة النفس ، التوكل ، الذكر

وإذا كان الفقر سلبا فى طبيعته ، يستلزم التخلص من كل ماهو دنيوى ، فإن الثلاثة الباقية هى الجانب الإيجابى من الطريق أعنى أنها الرياضة الخلقية ، التى تتصل الروح بالحقيقة ، اتصالا متجانسا منسقا ، عن طريقها

الفقر

والروح الجبرية ، التى جثمت فى عبوس ، فوق صبى الإسلام كالإحساس بأن الأفعال الإنسانية جميعا قدرتها قوة خفية ، وأنها – فى ذاتها – شئ تافه ؛ هذه الروح جعلت من نبذ الدنيا طغراء الزهد الإسلامى الباكر وكل مؤمن صادق الإيمان ، يلتزم التحرج من اللذائذ غير المشروعة ، ولكن الزاهد إنما استحق الفضل بالتزامه التحرج من اللذائذ المشروعة ، وغير المشروعة [١] وقد فهم نبذ الدنيا – أول الأمر – فهما حسيا خالصا فأنْ تتقلل جهد المستطاع ، من طيبات الحياة الدنيا ، هو أنجع الوسائل لكسب النجاة وداود الطائى [٢] لم يملك من حطام الدنيا إلا حصيرا ، ولبنة يتخذها

(١) قال أبو نصر السراج : « الزهد فى الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبه فتركه واجب » .
السراج اللمع ص ٤٦ س ١٤

(٢) داود بن نصير أبو سليمان الطائى الكوفى . كان ممن شغل نفسه بالعلم ، ودرس الفقه ، وغيره من العلوم . ثم اختار بعد ذلك العزلة ، ولزم العبادة ، واجتهد فيها ، إلى آخر عمره . وقدم بغداد ، فى أيام المهدى ، ثم عاد إلى الكوفة ، وفيها كانت وفاته ، سنة خمس وستين ومائة
الخطيب تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٤٧ – ٣٥٥

وسادة ، ومزادة يجعلها لشرابه واغتساله ورأى رجل فى نومه مالك بن دينار [١] ، ومحمد بن واسع [٢] ، وقد صارا إلى الجنة ، فولجها مالك ، قبل أن يلجها محمد بن واسع ، فصاح الرجل استغرابا ، لأنه كان يرى لمحمد فضل السبق فجاءه الجواب « نعم ! وَلكنه كان لمحمد بن واسع قميصان ، وليس لمالك إلا قميص واحد وهذا هو الذى جعل لمالك فضل السبق » والمثل الصوفى الأعلى للفقر ، لايقف عند هذا الحد فليس الفقر حقيقته مجرد قلة المال ، ولكنه قلة الرغبة فى المال . قلب فارغ ، ويد فارغة [٣]
و « الفقير » و « الدرويش » هما الوصفان اللذان يفخر الصوفى بأن ينعت بأيهما . لأنهما يدلان ، على أنه قد تجرد من كل رغبة أو فكرة ، تصرف قلبه عن الله . « هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف » [٤] بل هو « ترك الشكوى ، وإخفاء أثر البلوى » [٥]

وهكذا يتعرى « الفقير » عن وجوده الشخصى ، فلا ينسب إلى نفسه عملا ، أو إحساسا ، أو صفة ولعله أن يكون غنيا – كما تدل الكلمة فى معناها الشائع – وهو مع ذلك أفقر الفقراء ؛ لأن الله يمنح أولياءه ، فى بعض الأحيان ، الثروة والجاه ، ليخفيهم عن أبناء الدنيا

---

(١) مالك بن دينار أبو يحيى من علماء البصرة وزهادها المشهورين ، كان ينسخ المصاحف صدوق ثقة مات سنة ثلاثين ومائة

الذهبى ميزان الاعتدال جـ ٣ ص ٣

الخزرجي خلاصة تذهيب الكمال ص ٣١٣

(٢) محمد بن واسع بن جابر ، أبو بكر الأزدى ، البصرى الزاهد ، أحد الأعلام قال سليمان التيمى « ما أحد أحب إلى من أن ألقى الله بصحيفته إلا محمد بن واسع » توفى سنة سبع وعشرين ومائة ، وقيل سنة ثلاث وعشرين ومائة

الخزرجى الخلاصة ص ٣٨

(٣) سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال « تخلى الأيدى من الأملاك ، وتخلى القلوب من الطمع » وسئل سرى السقطى رحمه الله عن الزهد ، فقال « إن يخلو قلبه مما خلت يداه »

اللمع ص ٤٦ س ١٦ – ١٨

(٤) الرسالة القشيرية ص ٧٣ س ٢٩

(٥) اللمع ص ٤٩ س ٤ ، ٥ والتعبير لإبراهيم الخواص

والذين لهم دراية بالكتاب المتصوفة ، ليسوا فى حاجة إلى أن يعلموا أن تعاريف هؤلاء غامضة ؛ وأن الكلمة الواحدة قد تشيع بين الكثير - إن لم يكن بين الكثرة الغالبة - من المدلولات ؛ يتسع الخلف بينهما أو يضيق ، حسب الجهة التى نظر إليها منها ومن هنا يكون الخلط واضحا ، فى رسائل الصوفية

وإذا بيّن الفقر مثلا أحدُ الشراح على أنه « نظرية متسامية Transcend - ental Theory » وبينه آخر ، على أنه قاعدة عملية للحياة الدينية ؛ فليس من الممكن أن تتطابق المعانى

وليس الفقر ، إذا نظرنا إليه من الوجه الأخير ، غير بدء للصوفية يقول الجامى

« الفقراء يرفضون حطام العاجلة ، ابتغاء رضوان الله ، وهم مدفوعون إلى هذه التضحية ، بدافع من ثلاثة

(أ) رجاء الحساب اليسير فى يوم القيامة ، أو خوف العقوبة

(ب) الرغبة فى الجنة

(جـ) الشوق إلى طمأنينة الروح ، وهدوء الباطن وهم ماداموا يبحثون عن نفع أنفسهم ، غير مصروفين عن ذلك ، فى مرتبة دون الصوفى ، الذى لا مشيئة له أصلا ، وإنما يعتمد اعتمادا خالصا على مشيئة الله إنه « نسيان النفس » الذى يميز الصوفى من الفقير

وهذه بعض الوصايا ليتبعها الدراويش

أ - لا تسأل ، إلا أن تتضور ؛ فقد جلد عمر رجلا سأل بعد أن سد جوعه فإذا ألجئت إلى السؤال ، فلا تأخذ أكثر مما تحتاج

ب - كن كريم النفس ، عديم الشكوى ، واشكر الله على فقرك

جـ - لاتتزلف إلى الغنى إذا أعطاك ، ولا تلمه إذا منعك

د - خف ذهاب الفقر عنك ، أكثر مما يخاف الغنى ذهاب الغِنَى عنه

هـ - تقبل ماأهدى إليك ؛ فإنه طعام يومك ، أرسله الله إليك ؛ فلا ترد هدية الله

و – لاتجعل إلى التفكير فى غدك سبيلا إلى عقلك ، وإلا وقعت فى الهلاك الدائم .

ز – لاتتخذ الله مصيدة تصيد به الصدقات

النفس

أنشأ شيوخ الصوفية تدريجًا ، مذهبًا للزهد ، والثقافة الخلقية ، قام على أساس أن فى الإنسان عنصر شر ، ذلك هو روحه الشهوانية ، أو الدنيئة وهذه الروح الشريرة – مستقر الشهوة والهوى – تسمى النفس (١) ويمكن أن تعتبر ، على وجه العموم ، مرادفة للجسد ، وهو وأعوانه ، الدنيا والشيطان ، أعظم العقبات فى سبيل تحصيل الاتحاد مع الله (٢) . يقول النبى ﷺ « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » ولست أريد أن أناقش الآراء المختلفة ، أستظهر طبيعتها ، ولكن التدليل على ماديتها لايحتمل الإغفال

يروى محمد بن عليان (٣) ، وهو صوفى شهير ، أنه فى بعض الأيام ، أبصر شيئا كالثعلب الصغير ، يخرج من حلقه ، وقد ألهمه الله أن يعرف أنه نفسه ؛ فداسها بقدمه ، فكبرت على الدوس ، فكرر عليها ، فلم تزدد إلا ضخامة فقال « إن غيرك يتحطم على الأذى والضرب ، فكيف بك تزدادين ؟ » فقالت « لأننى خلقت على النقيض من الأشياء ؛ ما ساءها يسرنى ، وماسرنى يسوءها »

---

(١) يقول القشيرى « وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ « النفس » الوجود ، ولا القالب الموضوع ، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولا ، من أوصاف العبد ، ومذموما من أخلاقه وأفعاله »

الرسالة القشيرية ص ٥٨ س ١٠ – ١٢

(٢) قال أبو بكر الطمستانى « النعمة العظمى الخروج من النفس والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله »

الرسالة القشرية ص ٣٨ س ١٤ ، ٨

(٣) محمد بن عليان النسوى ، من كبار مشايخ نسا ، ومن أصحاب أبى عثمان الحيرى . كان يخرج إليه من نسا ، ليسأله فى مسائل ، فلا يأكل ولا يشرب حتى يدخل نيسابور

الشعرانى لواقح الأنوار جـ ١ ص ١٣٧

ورؤيت نفس الحلاّج [١] تعدو خلفه ، فى صورة الكلب ؛ وفى حالات أخرى ظهرت فى صورة الفأر ، أو الثعبان

مجاهدة النفس

ورياضة النفس ومجاهدتها ، هى العمل الرئيسى فى التقوى ، تقود عن طريق مباشر ، أو غير مباشر ، إلى حياة التأمل والشيوخ جميعًا على أن المريد الذى يهمل هذا الواجب ، لايكاد يعرف بدائه التصوف [٢] . والقاعدة فى هذه الرياضة أن تصرف النفس صرفا عن هذه الأشياء التى اعتادتها ، وتغرى على مقاومة أهوائها ويهدم كبرياؤها ، وتوقع فى الشدة والعنت ؛ حتى تدرك وضاعة طبعها الأصيل ، وفعلها الرذيل [٣]

ومن الممكن أن يكتب الشئ الكثير عن طرق المجاهدة الظاهرة ، كالصوم والصمت ، والخلوة والعزلة . ولكن علينا أن نجوز ذلك إلى التدريب الأخلاقى العالى ، الذى يكمل الطريق ، ورياضة النفس – كما فهمها السابقون من المتصوفين – تغيير معنوى لباطن الإنسان وحين يقولون

---

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ، من أهل بيضاء فارس ، ونشأ بواسط العراق صحب الجنيد ، والنورى ، وعمرو بن عثمان المكى ، والفوطى ، وغيرهم وشيوخ الصوفية مختلفون فى أمره ، رده أكثرهم ، وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ، وقبله بعضهم كأبى العباس بن عطاء ، وأبى القاسم النصراباذى ، وحكوا عنه كلامه ، قتل ببغداد ، بباب الطاق ، يوم الثلاثاء ، لست بقين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة

الشعرانى لواقح الأنوار جـ ١ ص ١٢٦

(٢) قال أبو على الدقاق « اعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة ، لم يجد من هذه الطريقة شمة »

وقال أبو عثمان المغربى « من ظن أنه يفتح له شئ من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن شئ منها ، إلا بلزوم المجاهدة ، فهو فى غلط »

الرسالة القشيرية ص ٦٣ س ٢٠ – ٢٤

(٣) يقول القشيرى « أصل المجاهدة وملاكها ، فطم النفس عن المألوفات .. واحلالها بعقوبة الذل ، بما يذكرها من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها »

الرسالة القشيرية ص ٦٤ س ١٤ – ٢١

« مت قبل أن تموت » فهم لا يريدون أن النفس الشهوانية ، من الحتم أن تتحطم ، بل يريدون أن من الممكن [١] – بل من الواجب – أن تتطهر من صفاتها ، التي ليست إلا شرا خالصا وهذه الصفات الجهل ، والكبر ، والحسد ، والبخل ، تستأصل وتستبدل بأضدادها إذا سلمت مشيئتك إلى الله ، وجمعت فكرك فى الله ومن هنا يكون « الموت فى النفس حياة فى الله » حقا

والاتجاهات الصوفية ، لهذا المذهب الذى قررت ، سوف تجد مكانها المناسب ، فى الفصول القادمة فأما هنا ، فسنجعل همنا مصروفا إلى الجانب الأخلاقى والصوفى ، الذى استأصل إرادته ؛ يقال عنه ، فى اصطلاحهم إنه بلغ درجة « الرضا » و « التوكل »

سقط درويش فى دجلة ، فصاح به رجل على الشاطئ ، رآه لايعرف سباحة « أتريد أن أدعو لك من يخرجك إلى الشاطى ؟ » فقال « لا » فقال له « أفتريد أن تغـــرق ؟ » فقال الدرويش « لا » فقال له الرجل : « فما تريد إذن ؟ » فقال « يفعل الله مايريد ! ماشأنى بإرادتى ؟! »

التوكل

والتوكل ، فى أدق مدلولاته ، يستلزم نبذ كل إرادة شخصية [٢] هو استسلام صرف ، كذلك الذى يكون من بدن الميت ؛ فى يد الغاسل ؛ يعده

---

(١) يقول القشيرى « المعلولات من أوصاف العبد على ضربين أحدهما يكون كسبا له ، كمعاصيه ومخالفاته ، والثانى أخلاقه الدنيئة فهى فى أنفسها مذمومة ، فإذا عالجها العبد ونازلها ، تنتفى عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق ، على مستمر العادة ومعالجة الأخلاق ، فى ترك النفس وكسرها ، أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر ، وغير ذلك من المجاهدات ، التى تتضمن سقوط القوة ، وإن كان ذلك أيضا من جملة ترك النفس »

الرسالة القشيرية ص ٥٨ س ١٤ – ٢٤

(٢) قال أبو تراب النخشبى حين سئل عن التوكل « التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والاطمئنان إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر »

اللمع ص ٥٢

للدفن [١] . هو عدم مبالاة خالصة بالأشياء ؛ حتى ماكان منها متصلا بالنفس فى قديم الزمان وثمة طائفة خاصة [٢] من قدامى الصوفية ؛ جعلوا من « التوكل » عَلَمًا عليهم ؛ وطبقوه جهد طاقتهم على حياتهم الخاصة

فمن أمثال تطبيقهم له ، أنهم لايطلبون القوت [٣] ، ولا العمل يؤجرن عليه ، ولا يمارسون تجارة ولا يسمحون للدواء يعطى لهم فى مرضهم أسلموا أنفسهم تماما ، لعناية الله [٤] ، ولم يلحقهم الشك ، فى أنه – وهو مالك كنوز السموات والأرض – يكفيهم حاجاتهم وأن حظهم ، الذى قسم لهم ، سيصيبهم لا محاله ، كما يصيب الطير ، التى لا تمارس زرعا ولا حصدا ، والسمك فى البحر ، والطفل فى رحم أمه

وهذه القواعد ترتكز ، فى النهاية ، على النظرية الصوفية فى « الاتحاد الإلهى » كما عرفها شقيق البلخى [٥] بقوله

---

(١) قال سهل بن عبد الله « أول مقام فى التوكل ، أن يكون العبد بين يدى الله ، عز وجل كالميت فى يد الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لايكون له حركة ولاتدبير »

الرسالة القشيرية ص ٩٩ س ١٦ – ١٩

(٢) سئل سهل بن عبد الله عن التوكل فقال « التوكل وجه كله ، وليس له قفا ، ولايصح إلا لأهل المقابر » وقد أشار بذلك إلى حقيقة توكل المتوكلين ، وهم الخصوص . اللمع . ص ٥٢ س ١٤ – ١٦

(٣) قال رجل لحاتم الأصم « من أين تأكل ؟! » فقال ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون الآية ٧]

الرسالة القشيرية ص ٩٩ س ٢٠ – ٢٢

(٤) سئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ، فقال « التعلق بالله تعالى فى كل حال » فقال السائل « زدنى » فقال « ترك كل سبب يوصل إلى السبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك »

الرسالة القشيرية ص ١٠٠ س ٢٨ – ٣٠

(٥) أبو على شقيق بن إبراهيم بن على البلخى ، من مشايخ خراسان . صحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريق ، وهو أستاذ حاتم الأصم كان من أثرياء قومه ويقال إنه كان له ثلثمائة قرية ، ثم تزهد ، ومات فقيرا لايجد كفنه . كما أنه كان من كبار المجاهدين فى سبيل الله يرى الذهبى أنه منكر الحديث وقيل إنه أول من تكلم بكورة خراسان ، فى علم الأحوال مات سنة ثلاث وخمسين ومائة

ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٣

الذهبى ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٤٤٩

« ثلاثة أشياء ، ليس بد للعبد من القيام بها فمن عمل بها ، أدخله الله الجنة ، وعاش فى الدنيا بالرَّوح والرحمة ومن ترك واحدة منها ، فليس له بد من أن يترك الاثنتين وإن أخذ بواحدة منها ، فليس له بد من أن يأخذ بها جميعًا ، لأنهن متشابهات ولو شئت قلت الثلاثة فى الواحدة ولكن الثلاثة أوضح وأبين فمن تركها ، وضيعها ، دخل النار ومن ترك واحدة منها ، ترك الاثنتين فتفقهوا وأبصروا ، فإذا بُصِّرتم فتبصروا

أولها أن توحد الله تعالى ، بقلبك ولسانك ، وعملك ، فإذا وحدته بقلبك ، واعتقدت ألا إله غيره ، ولا نافع ولا ضار غيره ، فإنه لابد لك من أن تنطق به ، فيرتفع إلى السماء

والثانية ليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره وأنت لاتجعل عملك لغيره ، إلا طمعا فيه ، أو حياء ، أو خوفا منه فإذا خفت ، أو طمعت فى غيره – وهو مالك الأشياء ، ورازقها – فقد اتخذت إلها غيره ، وأجللته وعظمته لأنك استحييت منه ، وخفته وطمعت فيه ، فأذهب ذلك عنك مافى قلبك ، من توحيد الله ، وسلطانه ، وعظمته ، فاعرف ذلك

فإذا صرت مخلصا بهذا القول عاملا به ، عالما أنه لا إله إلا هو ؛ فليكن هو أوثق عندك من الدينار والدرهم ، والعم والخال ، والأب والأم ، ومن على ظهر الأرض فإنك إن تكن على غير ذلك ، ينتقض عليك ضميرك ، وتوحيدك ، ومعرفتك إياه فهاتان خصلتان ، ليس لك منهما بد ، ويتبع بعضها بعضا

والثالثة إذا كنت بهذه الحال ، فأقمت هذين الأمرين – التوحيد والإخلاص ، والتوكل عليه – فارض عنه ، ولا تسخط فى شئ يحزنك ، من خوف ، أو جوع ، أو طمع ، أو رخاء ، أو شدة إياك والسخط وليكن قلبك معه ، لا يَزُل عنه طرفة عين . فإنك إن أدخلت فى قلبك السخط عليه ، فإنك متهاون به ؛ فينتقض عليك توحيدك

فعليك بالأولى التوحيد والإخلاص ، فاعرف ذلك . وافهم هذه الثلاث خصال ، تعزز بها وإياك أن تضيعها ، فتقذف فى النار . ولا ترى فى الدنيا

قرة عين » [١]

وليس للصوفى المتوكل فكر ، وراء الساعة التى هو فيها سأل شقيق مرة هؤلاء الذين يتحلقون ، منصتين إلى عظته أرأيتم إن أماتكم الله اليوم ، يطالبكم بصلاة غد ؟ » قالوا « لا ! يوم لا نعيش فيه ، كيف يطالبنا بصلاته ؟! » فقال شقيق : « فكما لا يطالبكم بصلاة غد ، فأنتم لا تطلبوا منه رزق غد ؛ عسى ألا تصيروا إلى غد ! » [٢]

وليس غريبا - جريا مع النتائج العملية لمحاولة الحياة مع التوكل - أن تقرأ هذه النصيحة ، التى تعطى لمن يريد أن يبلغ غاية هذا المذهب « ليحفر لنفسه قبرًا ، ويدفنها فيه » [٣]

والمتأخرون من الصوفية ، يرون أن السعى فى سبيل تحصيل الرزق ، متفق تمام الاتفاق مع « التوكل » [٤] بدليل قـــول الرسول « اعقلها وتوكل » [٥] وهم يعرفون التوكل بأنه « حال يعتادها القلب ؛ لا تفسد إلا

---

(١) أبو نعيم حلية الأولياء جـ ٨ ص ٦٤

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٩

(٣) قال بعضهم « من أراد أن يقوم بحق التوكل ، فليحفر لنفسه قبرا ، ويدفنها فيه ، وينس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل ، لايقوم له أحد من الخلق على كماله »

اللمع ص ٥٣

ويقول أبو سعيد الخراز « دخلت البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأنى وصلت ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت ، واتكلت على غيره ، فآليت ألا أدخل المرحلة ، إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعوا صوتا فى نصف الليل عاليا ياأهل المرحلة ! إن لله تعالى وليا ، حبس نفسه فى هذا الرمل ، فالحقوه . فجاءنى جماعة فأخرجونى ، وحملونى إلى القرية » .

الرسالة القشيرية ص ١٠٤ س ١٣ - ١٨

(٤) يقول القشيرى « واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، إن تعسر شئ فبتقديره ، وإن اتفق شئ فبتيسيره

المصدر نفسه ص ٩٩ س ٢١ - ٢٣

(٥) عن أنس بن مالك قال « جاء رجل على ناقة ، فقال يارسول الله ! أدعها وأتوكل ؟ » فقال « أعقلها وتوكل »

المصدر نفسه ص ٩٩ س ٢٥ ، ٢٦

بالأفكار التى تجلب على النفس لذة » فقد جعلوا مما يطعن فى التوكل ، أن الجنة موضع مرغوب عن النار [١]

فأى نوع من الخلق ، يمكن أن تنتجه نظرية كهذه النظرية ؟

فأما فى أحط منازلها ، فعاطل ضليل ، يعيش كَلًّا على غيره وأما فى أعلاها فدرويش مسالم ، يظل ساكنا وسط زعازع الأحزان ؛ ويقابل المدح والذم – على السواء – بعدم مبالاة ، ويلقى الأذى ، والضرب ، والعذاب ، والموت ، على أنها أحداث جارية فى مأساة الحظ الأبدية

وليس هذا السلوك الرزينّ – على أىّ حال – غاية ماتطمح إليه الصوفية بل ماتطمح إليه ، لا ينبثق إلا من الحب ، حين يصير استسلام النفس إلى ولع بها وسأتحدث عن ذلك فى حينه

الذكر

ومن بين العناصر الايجابية فى « الطريق » ، عنصر أجمع متصوفة المسلمين على اعتباره أساس الدين العملى ، وأعنى به الذكر [٢] تلك الرياضة ، التى يحسن معرفتها القارئون الغربيون للوصف الدقيق ، الذى ذكره « لين Lane» في كتابه « المصـــــريون المحدثون Modern Egyptians » ؛ وما ذكره عنه الأستاذ « ماكدونالد D. B. Macdonald » فى مؤلفه « اتجاهـــات الإسلام Aspects of Islam»

ولعل خير ما يقابل لفظ « ذكر » هو كلمة « Mentioning التلفظ » أو

---

(١) يقول أبو موسى الديبلى « قيل لأبى يزيد البسطامى ما التوكل ؟ فقال لى ماتقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ، ماتحرك لذلك سرك فقال أبو يزيد نعم ! هذا ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع لك تمييز عليهما ، خرجت من جملة التوكل »

المصدر نفسه ص ٩٩ س ١٣ – ١٦

(٢) يقول القشيرى « الذكر ركن قوى ، فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر والذكر على ضربين ذكر اللسان وذكر القلب فذكر اللســان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب فإذا كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه ، فى حال سلوكه »

الرسالة القشيرية ص ١٣٢

« Remembering التذكر » أو « Thinking التفكر »

وفى القرآن أمر للمؤمنين بأن يذكروا الله كثيرا والمراد به عمل من أعمال العبادة بسيط ، ليس للتصوف رائحة فيه ولكن الصوفية اتخذوا رياضة ، تكرير اسم الله ، أو ترديد بعض العبارات الدينية ، مثل (سبحان الله ، لا إله إلا الله) مصحوبا بتنغيم آلى ، وحشد تام لجميع القوى حول هذه الكلمة المفردة ، أو العبارة وهم يجعلون لهذه العبادة غير الموقوته من الأهمية ، فى وصلهم بالله وصلا غير منقطع ، مالا يجعلون للصلوات الخمس ، يؤديها فى أوقاتها المفروضة بقية المسلمين [١]

والذكر يكون لفظا ، ويكون صمتا ومن الخير – جريا على الأصل – أن يتعاون اللسان والقلب جميعا وقد أمر سهل بن عبد الله أحد مريديه ، أن يديم قول « الله ، الله » طول نهاره ، من غير انقطاع فلما اعتاد ذلك ، أمره أن يقولها فى ليله ، حتى كانت تخرج من شفتيه ، وهو فى نومه ؛ فقال له اشتغل بها فى صمتك وظل هكذا حتى تشرب كيانُه كله التفكير فى الله وذات يوم ، سقط على رأسه كتلة من خشب ؛ فانساب الدم من جرحه ، يكتب على الأرض (الله ، الله) [٢]

وقد وصف الغزالى أسلوب الذكر ، والنتائج المترتبة عليه ، فى عبارة لخصها : « ماكدونالد Macdonald » فيما يلى

« عليه أن يلزم قلبه الحال ، التى يكون فيها وجود شئ وعدم وجوده سواء عنده ثم لينفرد فى بعض الزوايا ، مؤديا ماوجب عليه من الفرائض لاغير ولا يشغلن نفسه بتلاوة القرآن ، أو تدبر معانيه ، أو مدارسة كتب

---

(١) يقول القشيرى « ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، بل مامن وقت من الأوقات ، إلا والعبد مأمور بأن يذكر الله ، إما فرضا ، وإما ندبا والصلاة – وإن كانت أشرف العبادات – فقد لاتجوز فى بعض الأوقات ، والذكر مستدام فى عموم الحالات قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾

الرسالة القشيرية ص ١٣٣ س ٢ – ٦

(٢) يقول الجريرى « كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول (الله ، الله) فوقع يوما على رأسه جذع ، فشج رأسه ، وسقط الدم ، فاكتتب على الأرض (الله ، الله)

المصدر نفسه ص ١٣٤ س ١٧ – ١٩

الحديث ، أو ماجرى فى هذا الباب وألا يجعل لغير الله تعالى سبيلا إلى قلبه ثم لايكف فى خلوته عن ترديد اسم الله « الله ، الله » ؛ جاعلا فكره فيه ، فسيصل إلى الحال التى تقف فيها حركة لسانه ، وكأن الكلمة تنساب منه انسيابا فليستدم ذلك حتى تنقطع حركة لسانه أصالة ، ويجد قلبه مداوما للفكر فى الله ؛ ثم يلزم ذلك حتى تذهب حروف الكلمة وصورتها من قلبه ، ولا يبقى غير مدلولها وحده ، متعلقا بالقلب ، غير منفصل منه . حينئذ يصبح كل شئ رهن إرادته ، غير رحمة الله ، فإنها لاتدخل فى مشيئته وإرادته . وقد عرض نفسه الآن لنسمات الرحمة ، وليس عليه إلا أن ينتظر مايفتح الله به عليه ، كما فعل الله بأنبيائه وأوليائه

فإن هو اتبع هذا الطريق ، كان على بينة من أن نور الحق سيشع فى قلبه لا محالة وهذا النور ، فى أول أمره ، غير مستقر ، كالقبضة من الضوء ، تجئ وتذهب ، ولعلها – فى بعض الأحيان – أن تتخلف ، فإن عادت فهى حينًا مقيمة وحينا لاتكاد ؛ فإن أقامت فهى حينا طويلة اللبث ، وحينا قصيرتها »

وقد جمع بعض الصوفية خلاصة الأمر فى قوله

« أدنى الذكر أن تنسى مادونه ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر » [١]

* * *

واستدامة الذكر تقع على وجوه مختلفة فالشبلى ، حين كان مريدا ، كان يصحب حزمة من العصى ، إلى مغارة كل يوم ، فإذا فتر انتباهه ، ضرب نفسه ، حتى تتحطم العصى وكثيرًا ماكانت تنفذ الحزمة قبل المغرب ، فيظل يضرب يديه ورجليه فى حائط المغارة [٢]

والرياضة الهندية فى إمساك النفَس أو إرساله ، عرفها الصوفية فى القرن الرابع الهجرى – التاسع الميلادى – كثيرا ماستعملوها بعد ذلك والموسيقى ، والغناء والرقص ، عند جماعات الدراويش ، وسائل محببة فى

---

(١) القشيرى الرسالة القشيرية – ص ٣٨ س ٢٢ ، ٢٣

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٧٢ س ٥ – ٨

اجتذاب حالة الغيبوبة ، التي يسمونها (الفناء) هذه الحال التي تعد قمة الطريق ، بل سبب وجودها ، كما يظهر من تعريفها السابق

المراقبة

ونحن نعرف في المراقبة نوعا من تركيز الفكر ، مماثلا لما يدعى في البوذية « الذيانا والسماذى Dhyana & Samadhi » [١] وذلك هو ماعناه النبي حين قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [٢] وكل إنسان يشعر – صادقا – أن الله مطلع عليه ، لاينفك حابسًا نفسه على مراقبة الله ؛ ولا تتطرق إليه أفكار أثيمة ، ولا تجد الشكوك الشيطانية سبيلها إلى قلبه

وقد اعتاد النورى أن يراقب نفسه أتم مراقبة ، حتى لا تتحرك الشعرة على جسمه وقال إنه تعلم تلك العادة من قطة ، كانت ترقب جحر فأر ، وأنها كانت أكثر منه سكونا

ويحكى عن أبي سعيد بن أبي الخير [٣] ، أنه كان يديم النظر إلى سرته

---

(١) الذيانا « Dhyana » هي التأمل والمراقبة « Meditation » ، والسماذى « Samadhi » هي الاستغراق والفناء « Absorption » والذيانا عامل هام في الرياضة الدينية عند البوذيين ، وهي الطريق إلى السماذى وحين يرقى المتأمل إلى مرتبة السماذى ، يصبح المراقِب والمراقَب واحدا

Incyclopaedia of Religion & Ethics. V. 4, P. 702

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٤ س ٤

(٣) أبو سعيد فضل الله بن أبي الخير ، شاعر فارسي ، ولد في غرة المحرم عام ٣٥٧ (٧ ديسمبر سنة ٩٦٧) في « ميهنة » – أهم مدينة في أقليم « خابران » بخراسان . وتلقى دروسه الأولى في مسقط رأسه ، ثم رحل إلى مرو ، فدرس الفقه على أبي عبد الله المصرى الشافعي ، ثم على أبي بكر القفال ويقال إنه ذهب إلى سرخس حيث تلقى العلم على أبي على ظاهر بن أحمد ، وهنا تعرف على أبي الفضل بن حسن ، تلميذ أبي نصر السراج فاعتنق مذاهب الصوفية . ورجع إلى ميهنة ، فاعتزل الناس سبع سنين . ثم رحل إلى أبي عبد الرحمن السلمى ، فنال الخرقة من يديه وقفل راجعا إلى مسقط رأسه ، حيث مات في ٤ شعبان سنة ٤٤٠ (١٢ يناير سنة ١٠٤٩)

دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٣٥٢ – ٣٥٤

وقد قيل إن الشيطان يضربه الصرعُ ، إذا اقترب من رجل راقب نفسه على هذا النحو ، شأنه فى ذلك شأن من يَصْرع من الناس

* * *

وإذا كان هذا الفصل ، قد أمد القارئ بصورة واضحة ، للمعالم الرئيسية ، التى تقوم عليها الرياضة التمهيدية للصوفى ، فقد أدى ما أريد منه وعلينا أن نتصور الصوفى الآن ، وقد منحه شيخه « المُرقَّعة » أو « الخِرْقَة » ، التى تتخذ علامة ظاهرة ، على أن الصوفى قد نجح فى اجتياز الدرجات الأولى ، من سلّم « الطريق » وأنه يتقدم الآن ، فى خطى غير وطيدة ، صوب « النور » ؛ كما يصل المسافرون ، نال منهم عنت السفر ، غاية نَقْب عميق ؛ وفجأة تبهرهم أضواء الشمس ، فيغطون أعينهم بأيديهم

* * *

الفصل الثانى

التجلى والجذب

ليس فى طوق عين البصر أن ترى الله ، الذى وصف فى القرآن بأنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور الآية ٣٥] ، وإنما يرى بعين البصيرة وحدها . وسأعود ، فى الفصل الآتى ، إلى تبيين هذه الحاسة الروحية على أنى لن أزج بنفسى الآن ، فى تعقيدات السيكولوچية الصوفية ، أكثر مما ينبغى

وقد عُرِّفتْ « رؤية القلب » بأنها ، « نظر القلوب ، إلى ما توارى فى الغيوب ، بأنوار اليقين ، عند حقائق الإيمان » وذلك ماعناه على ، حين سئل « هل نرى ربنا ؟ » فقال « وكيف نعبد من لم نره ؟! » (١)

ونور اليقين ، الذى يرى به القلب ربه ، هو شعاع من نور الله ذاته ، قذف به فيه وبدون هذا الشعاع لاتكون الرؤية ممكنة ، والشمس يبصرها بضوئها المبصر . وجريا مع التفسير الصوفى للآية الشهيـرة فى القرآن ، حيث يشبّه نور الله بمصباح ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ [النور الآية ٣٥] قد وضع فى مشكاة ، ليست هذه المشكاة إلا قلب المؤمن ، فحديثه نور ، وأعماله نور ، وهو يسير فى نور يقول أبو يزيد البسطامى « من وعظ بالديمومة ، فلابد له أن يشتمل على مصباحها »

والنور الذى يشع فى قلب الصوفى ، الذى كشف عنه الغطاء ، يزوده بقوة خارقة ، هى « الفراسة » والصوفية – وإن قالوا بقول بقية المسلمين ، بأن محمدًا خاتم الأنبياء ، وهو « الكلمة » أو أول المخلوقات من وجه آخر – يدعون لأنفسهم شيئا من الإلهام

---

(١) اللمع ص ٣٥٠ س ٦ – ٩

ولما سئل النورى عن أصل الفراسة ، تلا الآية التى يذكر الله فيها ، أنه نفخ فى آدم من روحه [١] على أن الصوفية ، الذين يتشددون فى الاستمساك بالسنة ، ويعارضون - فى صرامة - القول بأن الروح الإنسانية قديمة باقية ، يؤكدون أن الفراسة نتيجة العلم والتبصر ، اللذين يسميان - على سبيل المجاز - « نورا » أو « إلهاما » يخلقهما الله ، ويمنحهما المصطفين من عباده [٢]

وقول الرسول « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » [٣] تعززه هذه الروايات

« حدث أبو عبد الله الرازى ، [٤] قال أهدانى ابن الأنبارى [٥] عباءة صوف ، فرأيت على رأس الشبلى قلنسوة تماثلها ، فوقع فى قلبى أن لو كانتا كلتاهما لى فلما هم الشبلى أن ينصرف ، نظر إلىّ ، كشأنه حين يريد أن

---

(١) سئل أبو الحسين النورى : « من أين تولدت فراسة المتفرسين ؟ » . فقال : « من قوله تعالى ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ فمن كان حظه من ذلك النور أتم كانت مشاهدته أحكم وحكمه بالفراسة أصدق ألا ترى كيف أوجب نفخُ الروح فيه السجود له بقوله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

الرسالة القشيرية ص ١٣٤ س ٨ - ١١

(٢) يعلق القشيرى على رأى النورى فيقول « هذا الكلام ، من أبي الحسين النورى ، فيه أدنى غموض وإبهام ، بذكر نفخ الروح ، لتصويب من يقول بقدم الأرواح ، ولا كما يلوح لقلوب المستضعفين فإن الذى يصح عليه النفخ ، والاتصال والانفصال ، فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سمات الحدوث وإن الله تعالى ، خص المؤمنين ببصائر وأنوار ، بها يتفرسون وهى فى الحقيقة معارف ، وعليه يحمل قوله ﷺ : (فإنه ينظر بنور الله) أى بعلم وبصيرة يخصه الله تعالى به . ويفرده به من دون أشكاله وتسمية العلوم والبصائر أنوارا غير مستبدع ، ولا يبعد وصف ذلك بالنفخ ، والمراد به الخلق »

الرسالة القشيرية ص ١٣٤ س ١١ - ١٦

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٧ س ٢٢

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المغربى الرازى : صحب يوسف بن الحسين الرازى ، وعبد الله الخراز الرازى ، ومظفر القرميسينى ، والجريرى ، وابن عطاء وكان من أفتى المشايخ وأرسخهم ، وأحسنهم خلقا وأعلاهم همة ، وأتمهم دينًا وورعا

السلمى طبقات الصوفية ١٣٢ و

(٥) سهل بن وهبان الأنبارى من أقران الجنيد

حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٣٥٩

أتبعه فتبعته إلى داره ، فلما دخل ، أمرنى أن أخلع العباءة ، فأخذها منى ، ثم طواها ، فألقى فوقها قلنسوته ، ثم دعا بنار فأحرقهما جميعا » [١]

« وروى أن الجنيد ، لما رغبه السرى السقطى [٢] فى أن يعظ الناس ، والجنيد متردد أن يفعل ، لأنه لم يكن يرى نفسه أهلا لذلك العمل ، فرأى النبى ليلة الجمعة ، يأمره أن يعظ الناس ، فاستيقظ ، وقصد دار السرى ، قبل أن يطلع النهار فلما طرق الباب ، فتح له السرى ، وقال « ماصدقتنى حتى جاءك الرسول وأخبرك » [٣]

« وروى أن سهل بن عبد الله [٤] كان جالسا فى المسجد الجامع ، إذا أخذ الحر حمامة فسقطت أمامه ، فصاح سهل رحماك ربى ! قد مات الساعة شاه الكرمانى [٥] !

فكتب ذلك عنه ، ووجد صحيحا » [٦]

فإذا تطهر القلب من أدناس الرذيلة ، والأفكار الأثيمة ، هجم عليه نور اليقين ، وجعله مرآة مجلـــوة ، فلا يستطيع أن يقربهـــا الشيطان ، حتى لا يلحظ . ومن هنا جاء قول بعض العارفين « إذا عصيت قلبى عصيت

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٣٩ س ٢٤ - ٢٨

(٢) سرى بن المغلس أبو الحسن السقطى خال الجنيد وأستاذه صحب معروفا الكرخى ، وهو أستاذ البغداديين وإمامهم فى وقته مات سنة إحدى وخمسين ومائتين

السلمى طبقات الصوفية ١٠ ظ

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٤٣ س ٩ - ١٦

(٤) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع ، أبو محمد التسترى . أحد أئمة القوم ، وعلمائهم ، والمتكلمين فى علوم الرياضات ، والإخلاص ، وعيوب الأفعال صحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون المصرى سنة خروجه بمكة . مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين

السلمى طبقات الصوفية ٥٢ ظ

(٥) شاه بن شجاع ، أبو الفوارس الكرمانى كان من أولاد الملوك صحب أبا تراب النخشبى ، وأبا عبد الله بن الذراع البصرى وله رسالات مشهورة منها المثلثة التى سماها (مرآة الحكماء) مات قبل الثلاثمائة

السلمى طبقات الصوفية ٤٨ ظ

(٦) الرسالة القشيرية ص ١٤٠ س ٥ - ٧

ربى » . وإلى من امتلأ قلبه بالنور ، وجه الرسول قوله (استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون) [١] ذلك شئ خير من تلقى الدين بالتعلم

ولست فى حاجة هنا ، إلى معالجة موضوع ، سأعالجه فى الفصل التالى ، وهو إلى أى حد تتفق دعاوى هذا الضمير ، الذى يفترض لنفسه العصمة ، مع ظاهر الدين والأخلاق ؟

وقد سأل النبى ربه أن يجعل فى سمعه نورا ، وفى بصره نورا ؛ ثم ذكر عدة أعضاء من جسده ، وختم بقوله (واجعلنى كلى نورا) [٢]

والإشراق ، الذى يتعاظم لألاؤه شيئا فشيئا ، يرقى به الصوفى إلى التأمل فى الصفات الإلهية فإذا غاب إدراكه أصلاً ، تجوهر فى نور الوجود الربانى . وهذا هو « مقام الإحسان » وفى القرآن ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . [سورة العنكبوت آية ٦٩] وفى الحديث (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) [٣]

ولن أضيع الوقت ، أو أستنفد صبر القراء ، فى السعى وراء ترتيب درجات الإشراق المختلفة ، ووصفها . ولعلها أن تُصوَّر على التجوز ، ولكن إيضاحها يستعصى على اللغة العلمية ، فلندع الصوفية أنفسهم يتحدثون ونحن مسلمون بداءة أن علمهم كثيرًا مااستعصى على الفهم ولكنه يحمل من الحق أكثر مما نأمل أن يحمل التلخيص والاقتباس

وهاتان عبارتان منقولتان عن أقدم مؤلف فارسى عن الصوفية ، وأعنى به « كشف المحجوب » للهجويرى

١ - « روى عن السرى السقطى أنه قال اللهم ماعذبتنى بشئ . فلا تعذبنى بذل الحجاب فإنى إن لم أحجب عنك ، هان بذكرك ، والتأمل فيك كل عقاب ينزل بى وإن حجبت عنك ، صارت رحمتك لى عذابا وليس فى النار عذاب آلم ولا أنكى من الحجاب فلو تجلى الله فى النار لأهل النار ، ماذكر العصاة من المؤمنين الجنة أبدًا ، لأن رؤية الله تملؤهم

---

(١) اللمع ص ٤٥ س ١٣ - ١٩

(٢) ذخائر الأعلاق ص ٢١

(٣) الرسالة القشيرية ص ١١٤ س ٣

فرحا لا يحسون معه عذابًا جسدانيًا ، وليس فى الجنة نعيم أعظم من رؤية الله . فلو أن أهلها حصّلوا كل نعيم فيها ، وأضعافه من النعيم ، وحرموا رؤية الله لذهبت نفوسهم حسرات ولذلك كان من فضل الله . أن مكن قلوب أحبابه من رؤيته دائمًا ، حتى يمكنهم هذا النور من احتمال كل عذاب وهم يقولون فى شهودهم إنا لنرى جميع أصناف العذاب أهون على أنفسنا من الحجاب عنك ، فإذا تجلى جمالك لقلوبنا لم نفكر فى العذاب »

٢ - هناك ، على الحقيقة ، نوعان من التأمل أسبقهما ماكان نتيجة الإيمان الصادق ؛ والأخير نتيجة الحب والجذب ، إذ فى نشوة الحب ، يصل الإنسان إلى مرتبة ، يصير فيها وجوده كله مستغرقا فى محبوبه فلا يرى شيئًا آخر غيره قال محمد بن واسع مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه . أى من خلال الإيمان الصحيح وقال الشبلي مارأيت شيئًا إلا الله ، أى فى نشوة الحب ، وحميا التأمل فصوفى رأى الفعل ببصره ، ورأى الفاعل ببصيرته وآخر نشوان بالحب مصروف عن كل غير ، فلم ير إلا الفاعل فإحدى الطريقتين « حقيقية » والأخرى « جذبية » انتزع الدليل الواضح ، فى الأولى ، من بينات الله

فأما فى الثانية ، فإن المشاهد قد سكر وانجذب عن طواعية فالبينات عنده حجاب لأن من يعلم شيئًا لا يأبه لما عداه ، ومن يتعلق شيئًا يغفل ماسواه ؛ فيرفض مماراة الله ، ومداخلته فى أفعاله وأقضيته

وإذا صرف المحب بصره عن الخلق ، فسيرى - لا محالة - الخالق ببصيرته ، فقد قال الله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [سورة النور الآية ٣٠] أى أن يُقفلوا أبصارهم عن الشهوات ، وبصائرهم عن المخلوقات وأكثر الناس إخلاصًا فى رياضة النفس ، أكثرهم تمكنًا فى التأمل

قال سهل بن عبد الله التسترى « لو أن واحدًا أقفل عينه عن الله برهة ، فلن يهتدى طول عمره ، لأن اعتبار غير الله توكل على غيره ومن ترك لرحمة غير الله فقد هلك » ومن أجل هذا كانت حياة المتأملين هى الوقت الذى يغنمون فيه تأمليهم فأما الوقت الذى يصرفونه فى الرؤية بالأبصار ، فلا يعدونه حياة ، وهو عندهم موت أصيل ولذلك لما سئل أبو يزيد البسطامى عن عمره ، قال « أربعة أعوام » فقالوا « وكيف ذلك ؟! » قال

« حجبتنى هذه العاجلة سبعين عاما عن الله ، فما رأيته إلا خلال الأعوام الأربعة الأخيرة وما حُجِبتَه من عمرك ، لاتحسبه فى حياتك »

* * *

وقد اقتبستُ هذه العبارات من « المواقف للنفرى » [١] والنفرى مؤلف ستزداد معرفنا له كلما تقدمنا

« وقال لى أدنى علوم القرب ، أن ترى آثار نظرى فى كل شئ ؛ فيكون أغلب عليك من معرفتك بك [٢]

قال الشارح يريد أن أقل علوم القرب - القرب من الله - أنك إذا نظرت إلى أى شئ ، محسوس أو معقول ، أو غير ذلك ؛ فسوف ترى الله فيه رؤية أبين من رؤية الشئ نفسه . والدرجات فى ذلك متفاوتة ، فبعض الصوفية يقولون : أنهم لايرون شيئًا إلا ويرون الله قبله وبعضهم يقول إنهم لا يرون شيئا إلا ويرون الله بعده ، وآخرون يقولون إنهم لايرون شيئا ، إلا ويرون الله معه ، ويقول غيرهم مارأينا شيئا غير الله

قال صوفى حججت ، فرأيت الكعبة ، ولكنى لم أر رب الكعبة ، وهذه رؤية المحجوب ثم قال حججت مرة ثانية ، فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، فهذا تأمل الوجود ، الذى فيه كل شئ موجود ، أى أنه رأى الكعبة موجودة فى رب الكعبة ثم قال حججت الثالثة ، فرأيت رب الكعبة ، وما رأيت الكعبة ، فهذا مقام الوقفة ، الفناء فى الوجود ، والمؤلف يشير هنا إلى التأمل فى الوجود

وقد قيل الكثير فى الإشراق ولكن « الدُّكنة هى الشعار السائد » كما

---

(١) محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى ، من أهل القرن الرابع الهجرى وصاحب كتاب (المواقف والمخاطبات) ، الذى نشره فى سلسلة « جب » التذكارية ، المستشرق الانجليزى « أربرى A. J. Arberry » سنة ١٩٣٥ ولهذا الكتاب شرح لعفيف الدين التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٠ هـ . كما أن الشعرانى قد اختصر (المواقف) وكان النفرى جوالا زاهدا ، لاتستقر به أرض ويقال إنه توفى فى قرية من قرى مصر ويقول حاجى خليفة : إنه مات سنة ٣٥٤ هـ

مقدمة المواقف بالانجليزية

لواقح الأنوار جـ ١ ص ٢٣٦

(٢) النفرى المواقف والمخاطبات ص ٢

يقول « مفستوفيل Mephistopheles» . والتجربة الحية ، وإن تكن مرفوضة عند أكثرنا ، نستطيع أن نسمع أصداءها العالية ، ونحس وهجها المتحمس فيما خلفته فدعنى أنقل إليك مقطوعة فارسية ، للشاعر الدرويش « بابا كوهى الشيرازى » المتوفى ١٠٥٠ م

في السوق ، وفى الصومعة ، مارأيت غير الله
فى السهل ، وفى الجبل ، مارأيت غير الله
كثيرا ماأبصرته بجوارى فى المحنة
فى السراء والضراء ، ماأبصرت غير الله
فى الصلاة والصوم ، وفى التأمل والذكر
وفى دين الرسول ، مارأيت غير الله
لا الروح ولا الجسد ، ولا العَرض ولا الجوهر
لا الأسباب ولا المسببات ، مارأيت غير الله

* * *

فتحت عينى ، وبنور وجهه من حولى ،
فى كل ماكشفت عينى مارأيت غير الله
كالشمعة ، صُهرتُ فى ناره ،
وبين الأضواء المنبعثة ، مارأيت غير الله

* * *

نفسى ، بعينى رأسى ، رأيتها أكمل رؤية ،
فلما نظرت بعينى الله مارأيت غير الله

* * *

فنيتُ فى الفناء ، تلاشيت
يا للعجب أنا اليوم خالد ، وما رأيت غير الله

* * *

والصوفية كلها ، تقوم على القول بأنه إذا فقدت النفس الفردية ، فقد وجدت النفس الكلية ؛ وفى لغة الدين الجذب يهيئ الأسباب التى بها تتصل الروح مباشرة بالله ، وتتحد به . والزهد ، والتطهر من الآثام ، والحب والمعرفة ، والولاية – بل وجميع الأفكار الأساسية فى الصوفية – تبدأ من هذا الأصل الجامع

ومن بين العبارات المجازية ، التى تجرى كثيرًا على ألسنة الصوفية ، مساوية في قليل أو كثير للجذب الفناء ، والوجد ، والسماع ، والذوق ، والشرب ، والغيبة ، والجذبة ، والسكر ، والحال

ومن الإرهاق الذى ليس تحته طائل ، أن نختبر فى تفصيل ، تعاريف هذه الاصطلاحات ، وكثيرًا مثلها ، مما يقع فى تآليف الصوفية . ولن نكون أقرب إلى فهم الجذب ، إذا وصف لنا بأنه « سر ربانى ، يمد الله به المؤمن ، الذى يراه بعين اليقين » أو أنه « الشعاع الذى يتحرك فى أصل الروح ، ويسببه الشوق إلى الحب »

* * *

وليس فى الطوق مناقشة نظرية الجذب الإسلامية ، دون الإشارة إلى اصطلاحين سلفا ، وأعنى بهما « الفناء » و « السماع »

« والفناء » كما أشرت فى المقدمة – ذو أطوار ، ووجوه ، ومعان مختلفة يمكن أن تلخص فيما يلى

أ – تغيير معنوى للروح ، بإفناء ميولها ورغباتها جميعًا

ب – تجريد عقلى ، أو فناء العقل عن المدركات ، والأفكار ، والأفعال والأحاسيس ، بانحصاره فى التفكير فى الله والتفكير فى الله – هنا – معناه التأمل فى الصفات الإلهية

حـ – إبطال جميع قوى الفكر الواعى وأعلى درجات الفناء لايوصل إليها إلا حين لايدرك فى الفناء الفناءُ وذلك مايدعوه الصوفية « فناء الفناء » فالصوفى قد شعر آنئذ بالتأمل فى الوجود الربانى

والدرجة القصوى للفناء ، الفناء فى الذات ، تمهد للبقاء فى الله ، وسنعالجه على نحو أتم فى الفصل السادس

والطور الأول يشبه « النرفانا » البوذية تمام الشبه ، إذ هى فناء صفات النفس ، وأحوالها الذميمة وهذا الفناء يستلزم ، فى الوقت عينه ، بقاء الصفات والأحوال الحميدة وتلك طريقة جذية حتما ، مادامت جميع صفات النفس شرا بالنسبة إلى الله ولن يستطيع أحــد أن يجعل من نفسه « ربانيـا » - أى خالصا من « اثنينيته » - بل لابد أن يُجعل له ذلك ، بالنور الربانى ، يلقى فى قلبه

وبينما يشير الطور الأول إلى « **النفس الأخلاقية** » ، يشير الثانى إلى « **النفس العاقلة المدركة** » فإذا استعملنا الترتيب ، الذى يرتضيه كافة متصوفة المسيحية اعتبرنا الطور الأول ، إكمالا لحياة التطهر ، والثانى غاية لحياة الإشراق فأما الطور الثالث والأخير ، فهو أعلى درجة فى الحياة التأملية

وكثيرا - وإن لم يكن دائما - مايصحب الفناء فقد الإحساس

والسرى السقطى ، وهو من مشاهير صوفية القرن الثالث الهجرى ، يقول فى هذا : « إن الرجل يضرب وجهه بالسيف ، وهو لايحسه » [١] وكان أبو الخير الأقطع [٢] مصابا بغنغرين فى قدمه فرأى الأطباء ألا مناص من قطعها ولكنه أبى أن يكون ذلك . فقال مريدوه « بل اقطعوها وهو يصلى ، فإنه لا يشعر حينئذ » فعمل الأطباء بنصيحتهم فلما أتم أبو الخير صلاته ، وجد أن الأمر قد انقضى

---

(١) يقول الجنيد « ذكر يوما عند السرى السقطى ، رحمه الله تعالى ، المواجيد الحادة ، فى الأذكار القوية ، وما جانس هذا ، مما يقوى على العبد . فقال سرى رحمه الله ، وقد سألته فيه ، فقال : نعم ! يضرب وجهه بالسيف ، وهو لا يحسه » قال أبو القاسم رحمه الله كان عندى ، فى ذلك الوقت ، أن هذا لايكون فراجعته أنا فى ذلك الوقت فقلت له : يضرب بالسيف ولا يحس ؟! . انكارا منى لذلك . فقال : نعم ! يضرب بالسيف ولا يحس . وأقام على ذلك » .

اللمع ص ٣٠٦ س ٥ - ١٢

(٢) أبو الخير الأقطع التيناتى . أصله من الغرب . صحب أبا عبد الله بن الجلاء وغيره من المشايخ وكان أوحد فى طريقته فى التوكل . كان يأنس إليه السباع والهوام كما كان حاد الفراسة مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة

السلمى طبقات الصوفية ٩٥ و

وإنه لمن العسير أن يدرك المرء أن واحدا بلغ الغاية فى الفناء ، يستطيع أن يلتزم حدود الشريعة ، هذا الالتزام الذى يوجبه الصوفية من أهل السنة ومن هنا تأتى نظرية « الولاية » . فإن الله يحفظ وليه من عصيان أوامره . ولقد حكوا عن أبى يزيد ، والشبلى ، وغيرهم من الأولياء [١] « أنهم كانوا دائما فى حال انجذاب ، حتى يحين وقت الصلاة ، فيعودوا إلى إدراكهم ، فإذا أدوا صلاتهم عادوا إلى إنجذابهم ثانية »

وغيبة الانجذاب لا تكون ، فى نظرهم ، عن خيرة ؛ وإن تكن هناك أحوال تعتبر ممهدة لحدوثها . وقد تحدث للرجل من طريق رؤية جلال ربه ، أو من انكشاف قدرته لقلبه وذلك كشأن أبى حمزة [٢] إذ كان يسير فى طرق بغداد ، متأملا فى القرب من ربه فانجذب فجأة ، وهام على وجهه ، لايرى ولا يسمع ، حتى عاد إليه إدراكه ، فوجد نفسه فى الصحراء وقد تبقى الغيبة من هذا النوع الأسابيع العديدة فقد روى عن سهل بن عبد الله ، أنه ظل مرة فى انجذابه خمسة وعشرين يوما ، لايطعم ، وإن أجاب على مسائل ، يسألها له أهل العلم وإنه ليكون فى الشتاء ، وإن قميصه ليتصبب عَرقًا

وسرعان ماعرف الصوفية ، أن الإنجذاب يمكن أن يستعان عليه بالصنعة . لابجمع الفكر ، وبالذكر ، وغيرها من طرق « التنويم الذاتى Autohypnosis » البريئة وحدها ، بل كذلك بالموسيقى والغناء والرقص . وهذه جميعًا ، تدخل تحت كلمة « السماع » التى لاتدل إلا على الاستماع للغناء .

---

(١) قالت امرأة أبى عبد الله التروغندى « لما كانت أيام المجاعة ، والناس يموتون من الجوع ، دخل أبو عبد الله التروغندى بيته ، فرأى فى بيته مقدار منوين حنطة فقال الناس يموتون من الجوع ، وفى بيتى حنطة ؟! فخولط فى عقله ، فما كان يفيق إلا فى أوقات الصلوات ، يصلى الفريضة ثم يعود إلى حالته ، فلم يزل كذلك إلى أن مات »

الرسالة القشيرية ص ٤٦ س ١١ – ١٥

(٢) أبو حمزة البغدادى ، من أولاد عيسى بن أبان ، صحب السرى السقطى ، وبشرا الحافى وكان ينتمى إلى حسن المسوحى ، كما كان عالما بالقراءات توفى سنة تسع وثمانين ومائتين

السلمى طبقات الصوفية ٣٥ و

والمسلمون سريعو الاستجابة إلى تأثير الأصوات الجميلة ، سرعة غير عادية ؛ لايشك فى ذلك من قرأ « ألف ليلة وليلة » إذ يذكرون كيف أن الأبطال - رجالا ونساء - يصرعون لمغنية تحتضن عودها ؛ وتنشد عليه بضعة أبيات من الشعر العاطفى والأسطورة حقيقة فى واقع الحياة فكتّاب الصوفية ، إذا عرضوا لظواهر الجذب ، فعلوا مثل ذلك ، فى الفصل الذى يعقدونه تحت عنوان « فى السماع » [١] والهجويرى ، فى الفصل الذى عقده بهذا العنوان ، فى القسم الأخير من كتابه « كشف المحجوب » ساق تلخيصا جميلا لرأيه ورأى غيره من المسلمين وأردف ذلك بقصص كثيرة ، عن أناس وقع لهم الجذب ، عند سماعهم آية من القرآن ، أو هاتفا ، أو شعرا ، او موسيقى بل قد قيل عن كثيرين ، إنهم ماتوا من تعاظم ذلك عندهم .

وأضم إلى ذلك ، على سبيل البيان ، جريا على قول صوفى مشهور ، إن الله قد ألهم كل مخلوق أن يسبحه بلسانه ، فالأصوات كافة ، فى العالم أجمع - على ماهى عليه - تكوّن لحنا جامعا يمجد الله به نفسه وإذا فهؤلاء الذين كشف الله عن قلوبهم ، ومنحهم الإدراك الروحى ، يسمعون صوته فى كل مكان ؛ فيحصل لهم الجذب ، وهم يصغون إلى ترديد المؤذن ، أو نداء السقّاء يحمل القربة على عاتقه ، أو لعله عَزيف الريح ، أو ثُغاء الشاء ، أو مُكاء الطائر

« وفيثاغورس «Pythagoras [٢] ، و « أفلاطون Plato » مسئولان عن نظرية أخرى ، كثيرا ما ألمع إليها الشعراء من الصوفية وهى أن السماع ، يوقظ فى الروح ذكرى الألحان السماوية ، التى كانت تسمعها قبل الوجود ، قبل أن تنفصل الروح عن الله

---

(١) انظر الفصول القيمة عن السماع فى
الغزالى إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ١٨٢ - ٢١٠
القشيرى الرسالة القشيرية ص ١٩٧ ومابعدها
السراج اللمع ص ٢٦٧ - ٣٠٠

(٢) فيلسوف رياضى يونانى ، من فلاسفة القرن السادس قبل الميلاد ولد فى ساموس ، وأنشأ مدرسة فكرية تسمت باسمه ، كان لها الفضل فى نواح عديدة من العلوم الرياضية والفلكية

يقول جلال الدين الرومى
أغنية الأجواء فى تقلباتها
هى ما ينشده الناس بالصوت والعود
وحين كنا فى ظهر آدم
سمعنا هذه الألحان فى الفردوس
والترابُ والماء ، وإن ألقيا علينا حجابا
إلا أننا نستعيد ذكريات هذه الأغانى السماوية
لكن كيف ، ونحن محوطون بهذه الحجب الترابية
تصلنا ألحان هذه الأجواء الراقصة ؟!!

* * *

ولم تكد تنتشر رياضة السماع بين الصوفية ، حتى اختلفت آراؤهم فيها فبعضهم يراها محمودة مشروعة بينما يراها الآخرون بدعة ضارة ، وتحريضا على الرذيلة وقد اتخذ الهجويرى رأيا وسطا ، عبر عنه فى قول ذى النون « السماع وارد حق ، يزعج القلوب إلى الحق . فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق » [1] ثم بين على ذلك أن السماع لايوصف بالحسن ولا بالسوء ، وإنما يحكم عليه بنتائجه . فإذا ذهب راهب إلى حانة ، صارت له صومعة ، وإذا ذهب سكير إلى صومعة صارت له حانة فمن تشرب قلبه التفكير فى ربه ، فلا يفسده سماع آلات الموسيقى

وكذلك الحال فى الرقص حين يضطرب القلب ، ويزداد السكر ، ويبدو اضطراب الجذب ، ويذهب المعتاد من الشكل ، فليس ذلك رقصا ، ولاهو تَطلُّقا جسديا ، ولكنه خلوص الروح

والهجويرى - على أى حال - يضع عدة تحذيرات للذين يحضرون مجالس السماع . وهو يعترف ان الاجتماعات العامة التى يعقدها الدراويش ، ليست إلا فسادا خالصا ويرى ألا يسمح للمبتدئين بشهودها وقد وصف

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٥٣ س ٢٨ ، ٢٩

شهود رؤية ، فى العصور الحديثة ، كثيرا من هذه المشاهد المعربدة
وأنا أنقل إليك ، عن الجامى ، قصة مشهد مماثل ، وقع منذ سبعمائة عام .

كان أسود درويش ، يدعى « زَنْجِى باشْجِرْ دِى » قد تروحن ، حتى لايكون مجلس سماع إلا إذا اشترك فيه وفى أثناء السماع ، ذات يوم ، انجذب ، فارتفع فى الجو ، وجلس على عقد يشرف منه على أهل المجلس ، فلما أراد النزول ، قفز على الشيخ مجد الدين البغدادى ، وأحاط عنقه برجليه والشيخ مع ذلك لايفتأ يدور فى تواجده ؛ على أن الشيخ نضو مهزول ، والأسود طويل بدين ، حتى إذا انتهى المجلس قال مجد الدين « لا أدرى أهو الأسود ، أم عصفور حط على عنقى ! » ولما نزل الأسود عن كتفى الشيخ ، عضه فى وجنته عضة شديدة ، تركت كدما يرى بعد ذلك دائما وكثيرا ماقال مجد الدين إنه لن يفخر بشئ يوم القيامة ، فخره بأنه يحمل آثار أسنان الأسود فى وجهه

ولابد أن تظهر الملامح كاشرة جامدة . ناهيك بالتشويهات البالغة ، فى أى تخطيط صادق للحياة الجذبية فى الإسلام

وليس هناك كسب من وراء إخفاء وجودها أو التقليل من أهميتها ، وإذا قال جلال الدين الرومى

يجر الناس على أنفسهم اللوم بسبب الخمر والمغنيات
لأنهم يريدون أن يهربوا إلى حين ، من إدراكهم
وما داموا يعلمون أن هذه الحياة شَرَك
فإن الذاكرة المختارة ، والفكر جحيم

* * *

فلنعلم أن وسائل السكر الروحى ، لم تكن دائمًا نقية ؛ وأن الطبيعة البشرية تحتال فى الاقتصاص لنفسها من الذين نبذوها

* *

الفصل الثالث

المعرفة

يميز الصوفية بين أعضاء ثلاثة ، تتخذ وسيلة للاتصال الروحى وهى
أ – القلب « The Heart » الذى يعرفه
ب – الروح « The Spirit » التى تحبه وتعشقه
حـ – السر « The Inmost ground of the soul » الذى يتأمله [١]

وسنضرب فى أعماق اللجة ، إن نحن عرضنا لمناقشة هذه المصطلحات ، وصلة كل منها بغيره ، وحسبنا كلمات قلائل ، عن أول هذه الثلاثة

القلب ؛ وإن اتصل على نحو غامض بسميه الجسدى ، ليس شيئًا من لحم ودم وطبيعته عقلية ، أكثر منها عاطفية ، على نقيض مدلول كلمة « Heart » فى الإنجليزية فإذا كان العقل غير قادر على معرفة ربه ، معرفة حقيقية ، فإن القلب قادر على أن يعرف وجوه الأشياء جميعًا ، وحين يشرق بنور الإيمان والمعرفة ، ينعكس عليه مايحويه العقل الإلهى ومن هنا كان قول الله فى الحديث القدسى « ماوسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » [٢]

وهذا الإلهام على كل حال ، رياضة نادرة الوقوع نوعا ما

والقلب – عادة – محجوب ، مظلم بالمعاصى ، ملوث بالتأثيرات

---

(١) يقول القشيرى « ومن ذلك السر ، ويحتمل أنها لطيفة مودعة فى القالب ، كالأرواح . وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل المحبة ، والقلوب محل المعارف »

الرسالة القشيرية ص ٥٩ س ٥ – ٨

(٢) ذخائر الأعلاق ص ١١

والصور الجسدية   مذبذب بين العقل والعاطفة   فهذا ميدان تصطرع فيه جيوش الله وجيوش الشيطان ، بغية الغلبة . من أحد البابين يتلقى القلب معرفة الله اللدنية ، ومن الآخر تدخل عليه ضلالات الحس

يقول جلال الدين الرومى

هنا عالم ، وهناك عالم ، وأنا على العتبة جالس

وفى طوق الإنسان – إذا شاء – أن يكون أحط من البهائم ، وأن يكون أرفع من الملائكة

تتكون خميرة الرجل العجيبة ، من الملك والحيوان

فإن جنح إلى الحيوان كان أحط منه

وإن مال إلى طبيعة الملك ، برّز فيها عليه

هو أقل من البهائم ، لأن البهائم تنقصها المعرفة ، التى تمكنها من النهوض

وهو أرفع من الملائكة ، لأن الملائكة ليسوا عرضة للهوى ، فهم لايزلون .

* * *

كيف يعرف الإنسان الله ؟

لا يعرفه بالحواس ، لأنه غير متحيّز   ولا بالعقل ، لأنه لا يرتقى إليه الفكر   فالمنطق لايجاوز المحدود ، والفلسفة خادعة ، ودراسة الكتب تغذى خداع النفس ، وتضل « فكرة الحق » فى سحب من الكلمات الجوفاء .

وجلال الدين الرومى يتساءل – مخاطبا علماء الكلام – فى تهكم مرير

هل عرفتم اسمًا بلا مُسَمّى ؟!

هل قطفتم وردًا من الواو ، والراء ، والدال ؟!

أنتم تسمون اسمه ! اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى !

لاتنظروا إلى القمر فى الماء ، بل إلى القمر فى السماء

إنْ أردتُم أن ترفَّعوا عن الأسماء والحروف

فترفعوا أنتم عن « الأنية » أبدا

تطهروا من جميع صفات النفس
حتى تروا وجودكم النورانى
نعم تروون فى قلوبكم عِلم النبى
دون كتاب ، ودون معلم أو مرشد

* * *

وتأتى هذه المعرفة بالإشراق ، والانكشاف والإلهام ، يقول الصوفى «انظر فى قلبك ، لأن ملكوت السموات والأرض فيك» [١]

فمن عرف نفسه حق المعرفة ، عرف ربه ؛ لأن القلب مرآة تنعكس عليها كل صفةٍ ربانية ، وكما تفقد المرآة قدرتها على عكس المرئيات حين يتغشاها الصدأ ، فكذلك الحاسة الروحية الباطنة ، التى يدعوها الصوفية «عين البصيرة» ، تعشى عن رؤية العظمة العلية ، حتى يزول حجاز الذاتية المظلم ، بكل مافيه من نقائص حسية ، زوالا تاما

والصفاء - إن أريد له أن يتم على أكمل وجه - فلابد أن يكون بفضل الله ، على أنه يتطلب من جانب العبد جهادًا باطنا وتعاونًا خاصا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت الآية ٦٩] والعمل باطل زائف ، إن ظنه المرء ابتداعًا عن عند نفسه - والصوفى الحصيف يؤمن بأن الله هو الفاعل الحقيقى لكل فعل ، فلا يجعل ثقته بما قدم من صالحات ، بل ولايريد أن يجازَى عليها

وبينما يطلق على المعرفة العادية لفظ «العلم» يطلق على المعرفة الخاصة بالصوفية لفظ «المعرفة ، أو العرفان» و «المعرفة» - كما أشرت فيما سبق - مختلفة أصالة عن «العلم» ولابد من استعمال كلمة مغايرة لترجمتها ولن يذهب بنا البحث بعيدًا ، وراء وجود كلمة مناسبة لها فمعرفة الصوفية هى «عرفان Gnosis الثيوصوفية الهلينستية ، هى معرفة مباشرة

---

(١) ينسبون إلى على بن أبى طالب هذا الشعر

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

لله [١] قائمة على انكشاف أو رؤية جذبية ، وليست نتيجة بحث عقلى بل هى متوقفة أصالة ، على رضوان الله ومشيئته ، يسبغها منحة من عنده على هؤلاء الذين خلقهم وأعدهم لتلقيها ، إنها نور الجمال الربانى يشع فى القلب ويغلب كل قدرة إنسانية على أمرها بضوئه الأخاذ ، « من عرف الله انقطع » [٢]

وقد عالج النفرى - فى بحث فريد له عن التصوف النظرى - الصلة بين الدين والمعرفة والنفرى درويش متجول مغمور ، مات فى مصر فى مستهل النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى ، (النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى) وبحثه قائم على سلسلة من الانكشافات ، خاطبه الله فيها ، وعلمه ماينبغى أن يعلم عن « المعرفة » وقد كتبت فى لغة تعسر على الفهم ؛ وليس من السهل فهمها من غير أن يصحبها شرحها وإن قيمتها ، من حيث هى عرض أصيل للصوفية الراقية ، لتبدو من هذه المتقطفات التى أقدمها فى هذا الفصل يقول النفرى

« وقال لى العلماء ثلاثة ، فعالم هداه فى قلبه ، وعالم هداه فى سمعه ، وعالم هداه فى تعلمه » [٣]

---

(١) يقول القشيرى « .. وعند هؤلاء القوم - يعنى الصوفية - المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع أحواله وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا وأدام - فى السر - مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه . وصار محدثًا من قبل الحق - سبحانه - بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة . وفى الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل »

الرسالة القشيرية ص ١٨٣ س ٢٦ - ٣١ ، ص ١٨٤ س ١ - ٥

(٢) قال الواسطى « من عرف الله تعالى انقطع ، بل خرس وانقمع »

الرسالة القشيرية ص ١٨٤ س ٢٦ ، ٢٧

(٣) المواقف ص ٣٤ س ٩ ، ١٠

يعنى بذلك ، أن من يطلبون الله على أنواع ثلاثة

فأما أولا فالعبّاد الذين عرفهم الله نفسه ، بأسباب فضله أى أنهم يعبدون الله ، راجين الظفر بجنته ، أو بثواب روحى كالرؤْيا الصالحة والكرامات

وأما ثانيا :فالفلاسفة وعلماء الكلام ، الذين عرفهم الله نفسه بأسباب عظمته : أى أنهم لا يستطيعون أن يدركوا الرب العظيم ، الذى عنه يبحثون ويؤكدون أن معرفة ذاته فوق طاقة الإدراك ، حين يقولون « مبلغ علمنا عنه أننا لا نعلمه »

وأما ثالثا فالعارفون ، الذين عرفهم الله نفسه بأسباب الجذب ، أى أن السكر قد ملكهم ، وأمسك بزمامهم ، حتى خلصهم من إدراك الوجود الذاتى .

والنفرى يأمر العارف ، أن يأتى من أعمال العبادة ، مايكون على وفاق مع « المشاهدة » – رؤية الله – وإن خالف بفعله هذا الشريعة ، فالشريعة لم تجعل إلا للمحجوبين ويجب أن تحدد له فراسته الباطنة أىّ مظاهر الدين أليق به وذلك حين يقول

« وقال لى سلنى ؛ وقل ياربُّ ! كيف أتمسك بك ؟ حتى إذا جاء يومى لم تعذبنى بعذابك ؛ ولم تصرف عنى اقبالك بوجهك !. فأقول لك تمسك بالسنة فى علمك وعملك ؛ وتمسك بتعرفى إليك فى وجد قلبك واعلم أنى إذا تعرفت إليك ، لم أقبل من السُّنة إلا ماجاء به تعرفى ، لأنك من أهل مخاطبتى تسمع منى ، وتعلم أنك تسمع منى ، وترى الأشياء كلها منى » (١)

ويرى الشارح أن السنة ، لما كانت عامة فى شمولها ، لم تفرق بين الأفراد ، من الذين يطلبون الجنة ، والذين يطلبون الله بيد أنها فى الحقيقة تشتمل على كل ما يتطلبه الشخص ويُدرَك الأنسبُ منا لكل حالة ، بأسباب المعرفة ، التى يرسلها الله إلى القلب ؛ أو بأسباب الهداية ، يقدمها شيخ فى الله

---

(١) المواقف ص ٢٢ س ١٧ ، ١٨ ، ص ٢٣ س ١ – ٣

ويقول النفرى

« وقال لى : تعرُّفى الذى أبديته ، لا يحمل تعرُّفى الذى لم أبده »[1]

ومعنى هذا أن العارف لاضير عليه ، إن اختلف إلهامه مع ظاهر الشريعة . فهذا الاختلاف ظاهرى فحسب ذلك أن الدين يخاطب عامة الناس من المحجوبين ، عن طريق عقولهم ، أو عن طريق المنطق ، أو عن طريق الحديث ، أو أمثال ذلك

أما المعرفة ، فإنها للمختارين ، الذين غسلت أرواحهم وأجسادهم ، فى النور الخالد

فالدين يرى الأشياء من خلال التعدد ، أما المعرفة فتعتبر الجميع فى التوحد ومن هنا كان العمل الواحد خيرا عند الدين ، شرا عند المعرفة وتلك حقيقة قررت فى اختصار فى الأثر « حسنات الأبرار سيئات المقربين »

* * *

وأعمال البر - وإن لم تختلف مع المعرفة - ليس أحد ممن يرى لنفسه فيها أقل فضل ، عارفا

وهذه هى الفكرة ، التى يقوم عليها « الرمز » الآتى والنفرى قلما يسوق القول واضحا ، كما ساقه هنا ، فى هذا الرمز ومع ذلك الوضوح ، فأنا أتخيل أن قلة من القراء ، هم الذين يرون أن الشروح الموضوعة بين قوسين زائدة عن الحاجة أصالة وهذا هو الرمز

* * *

---

(١) المصدر نفسه ص ٢ س ٥

موقف البحر (١)

« أوقفني في البحر ؛ فرأيت المراكب تغرق ، والألواح تسلم . ثم غرقت الألواح »

[يريد بالبحر الرياضات والمجاهدات الروحية ، يجتازها السالك في رحلته إلى الله وما يشير إليه هنا هو أى الأمرين يفضل ؟ آلشرع ، أم الحب المنزه عن الأغراض ؟

وهو يحذره أن يعتمد على ماقدم من صالحات ، فهي لا تفضل السفن الغريقة ، التي لن تصل به إلى شاطئ الأمان . لا ، بل عليه – إن طلب الله – أن يتوكل عليه وحده ؛ فإن لم يتوكل عليه توكلا خالصا ، وترك نفسه تثق – ولو قليلا – في الأغيار ، فهو مايزال متعلقا بلوح وثقته بالله ، وإن كانت أعظم من السابقة ، إلا أنها ليست كاملة]

* * *

« وقال لي لا يسلم من يركب »

[راكب البحر يتخذ السفينة آلة لعبور البحر ، فهو من هنا يعتمد على الأسباب الثانوية ، ولا يعتمد على السبب الأول] (٢)

* * *

« وقال لي خاطر من ألقى نفسه ولم يركب »

[أن ترفض العلل الثانوية ، شأنه شأن أن تقذف بنفسك في العباب والصوفي الذي يركب هذا المركب في خطر ، لسببين فلعله أن يرى لنفسه فضلا في هذا الرفض ؛ ومن يرفض شيئًا لهوى نفسه ، فهو في حال شر من حال

---

(١) المواقف ص ٧

(٢) يريد أن مايراه بعض الناس وسيلة للنجاة ليس وسيلة لها ، وأنه لايغني بنفسه شيئا ، فالسفينة لاتستطيع أن تجرى على اليبس

من لم يرفضه   أو لعله أن يرفض الأسباب الثانوية - الصالحات من الأعمال والأمل فى الجنة ، وما جرى مجراهما - لا لوجه الله ، بل لمحض عدم الإكتراث ، أو لغلظ كبده على الدين]

* * *

« وقال لى هلك من ركب وما خاطر »

[وعليه - رغم المخاطر المشار إليها - أن يجعل الله الغاية ، لا غاية بعده ، وإلا خاب]

* * *

« وقال لى   فى المخاطرة جزء من النجاة »

[وذلك بعض النجاة لاغير ، لأن كمال انكار الذات لم يتحقق بعد - وجماع انكار الذات فى انمحاء الأسباب الثانوية - جميع الظواهر - فى السكر الناتج عن رؤية الله   بيد أن هذه هى المعرفة ، أما ذلك الانكشاف والتعرف ، فهو موجه إلى صوفية فى درجة أقل من درجة العارفين   والعارف لايخشى خطرا ، لأنه لايملك شيئا يخشى عليه الضياع]

* * *

« وقال لى   وجاء الموج ، فرفع ماتحته ، وساح على الساحل »

[مَن تحت الموج هم الذين أبحروا فى سفن ، ثم تحطمت بهم سفنهم . فاعتمادهم على الأسباب الثانوية ، ألقاهم على الساحل ، أى أعادهم ثانية إلى عالم الظواهر]

* * *

« وقال لى   ظاهر البحر ضوء لا يبلغ »

[مَن يجعل شعائر العبادة الظاهرة عُمدته فى الوصول إلى الله فإنما يعتمد على الهباء]

« ومقره ظلمة لا تُمكن »

[نبذ الدين ، أصلاً وفرعًا ، ضرب فى متاهة]

« وبينهما حيتان لا تستأمن »

[يشير إلى الطريق الوسط ، بين مذهب أهل الظاهر ، ومذهب أهل الباطن . « والحيتان » مخاطرها وعقابها]

* * *

« وقال لى لا تركب البحر فأُحجبك بالآلة »

[المراد بالآلة هنا « المركب » يعنى الاعتماد على غير الله]

* * *

« ولا تلق نفسك فيه ، فأُحجبك به »

[من يعتبر العملَ يأتيه ، عملَه هو دون غيره ، وينسبه إلى نفسه فهو بعيد من ربه]

* * *

« وقال لى فى البحر حدود ؛ فأيها يُقِلُّك ؟ »

[الحدود هى الدرجات المختلفة للرياضة والمجاهدة الروحية وعلى الصوفى ألا يعتمد على أى منها فكلها باطلة]

* * *

وقال لى إذا وهبت نفسك للبحر ، فغرقت فيه ، كنت كدابة من دوابه »

[إذا اعتمد الصوفى ، على الأسباب الثانوية ، من عند نفسه ؛ أو تركها من عند نفسه ، فهو لابد ذاهب مذهب الضلال]

* * *

« وقال لى غششتك إن دللتك على سواى »

[إذا أمر الصوفىَّ صوتُه الباطن أن يجعل وجهته شيئًا غير الله فهو يخدعه]

* * *

« وقال لى الدنيا لمن صرفتُه عنها والآخرة لمن أقبلت بها إليه ، وأقبلت به علىّ »

[يريد أن النعيم الدائم ، نصيب من صُرِفتْ قلوبهم عن هذه الدنيا

وليس لهم من نصيب فى متاعها وأصحابُ الآخرة حقا ، هم الذين لايطلبونها ؛ من حيث إنها ليست المقصد الحقيقى لغرضهم ، بل المقصد التأمل فى الله لاغير]

* * *

والعارف يعاين عنصر الحقيقة في الدين ، بيد أن معرفته ليست مستمدة من الدين ، أو من أى نوع آخر من أنواع المعرفة البشرية ، وإنما هى قاصرة أصالة على الصفات الربانية ، والله يكشف معرفتها لأوليائه المتفكرين فيه وذو النون – الذى تجعل منه نظرياته الصوفية أبا للثيوصوفية الإسلامية – يرى « أن العارفين ليسوا أنفسهم ، ولا يوجدون فى أنفسهم وهم – ماكان لهم وجود – موجودون فى الله ؛ يتحركون إذا أراد أن يتحركوا وكلماتهم كلمات الله ، تجرى على ألسنتهم وبصرهم بصر الله ، حل فى أعينهم والعارف يتأمل الصفات لا الذات ، إذ يظل – حتى فى المعرفة – أثر ضئيل من الإثنينية ؛ ولا تختفى هذه إلا فى « فناء الفناء » ذلك التلاشى المطلق فى الربوبية الصمدية والصفة الأساسية هى الوحدانية والوحدانية الإلهية قاعدة المعرفة الأولى والأخيرة »

والمسلم والصوفى ، كلاهما يعلن أن الله واحد ؛ ولكن الجملة تحمل معنى مختلفا عند كل منهما فالمسلم يرى أن الله فرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأنه لايماثل أحدا من الموجودات إطلاقا والصوفى يرى أن الله هو الموجود ، الحق الأحد ، الذى يكمن وراء الظواهر جميعا وقد بلغ الصوفية بهذا الرأى غايته القصوى ، كما سنرى فإن لم يكن موجودا إلا الله ، فالعالم جميعا – وفيه الإنسان – واحد مع الله ضرورة ؛ حيث يعتبر فيضا صدر عنه ، دون الإخلال بوحدانيته ؛ كأشعة الشمس مع الشمس ؛ أو حيث يعتبر مرآة تنعكس عليها الصفات الربانية والإله ، الذى بيده الأمر ، لايكشف نفسه على هذا النحو ، دون سبب فَلِمَ انقلب الواحد كثرة ؟!

يجيب الصوفية – ولعل فيلسوفا أن يقول إنهم يتجنبون المشكلة – باقتباس الحديث المشهور « كنتُ كنزًا مَخفيًّا ، فأردتُ أن أُعْرَفَ ، فَخَلَقْتُ الخَلْقَ ليعرفونى » وفى عبارة أخرى ؛ الله هو الجمال السرمدى ، وفى طبيعة الجمال تكمن الرغبة فى الحب

والشعراء الصوفية ، قد وصفوا ظهور الذات الأحدية بمزيج من الخيال الأنيق . يقول الجامى

من الأبدية ، كشف المحبوب حجاب جماله ، فى فردانية الغيب ،
ثم رفع المرآة إلى وجهه هو ، وكشف عن جماله لنفسه
الكل واحد ، فلا اثنينية ، ولا أثر للأنت والأنا

* * *

دائرة السماء المترامية ، تعج بالألوف من الداخلين والخارجين ، اختبأت فى نقطة واحدة
والخليقة ترقد ممتهدة ، فى غفوة العدم ، كالوليد قبل أن يتنفس
وعين الحبيب - ناظرة مالم يكن - ترى المعدوم موجودا
وهو ، وإن كان يرى صفاته وأحواله وحدة حقة مع ذاته ، يريد أن تبدو له فى مرآة أخرى
وأن تصير كل صفة من صفاته الباقية ، بادية كذلك على وضع آخر

* * *

من أجل ذلك خلق هذه المروج الخضر ، من المكان والزمان ، وبستان أسباب العيش من الدنيا
حتى يستطيع كل غصن ، وكل ورقة ، وكل ثمرة ، أن يعرض نواحى جلاله المختلفة
فالبان يعطى لمحة عن قوامه اللدن ، والورد يروى عن طلعته البهية

* * *

وحيث يُرى الجمال فالحب بجانبه يُرى
فإذا توهج الجمال فى الخدود الوردية أوقد الحبُّ مشعله من هذه الجذوة
وحيث أقام الجمال فى الغدائر السود ، أتى الحب فوجد قلبا محتبلا فى طياتها

* * *

الجمال والحب ، كالروح والجسد . الجمال كالمنجم والحب كالحجر الكريم لقد كانا معا منذ الأزل ، ولم يرحلا قط إلا مصطحبين

* * *

ويعرض الجامى ، فى مؤلَّف آخر ، الصلة بين الله والعالم ، على نحو أكثر تفلسفا حين يقول

« الذات الصمدية ، إذا نظر إليها على أنها المطلق ، المجرد عن جميع المظاهر والحدود والتكثر ، هى الحق . وعلى النقيض من ذلك ، إذا نظر إليها من وجهة تكثرها وتعددها ، ذلك التعدد والتكثر الذى تبدى فيه نفسها ، حين تتلبس بالمظاهر ، فهى العالم المخلوق أجمع وإذا فالعالم هو التعبير المعايَن الظاهر عن الحق والحق هو حقيقة العالم المغيبة الباطنة ومن قبل أن يكون العالم مشهودا ، كان متحدا مع الحق والحق ، بعد أن صار العالم مشهودا ، أضحى متحدا به »

ومثل هذه الظواهر إنما هى من غير الموجود وجودا حقيقيا ، وإنما تستمد وجودا عارضا من صفات « الموجود المطلق » التى بها تتجلى والعالم المحسوس كالدائرة النارية الموهومة ، صنعت من شرارة واحدة تدار فى سرعة

والإنسان تاج الخليقة وآخر أسبابها وهو إن يكن آخرا فى ترتيب الخليقة ، فهو أول فى مجرى الفكر الربانى لأن الجانب الأساسى فيه هو الفطرة أو « العقل المحيط » الذى فاض عن الألوهية مباشرة

وترتبط هذه الفكرة بفكرة « الكلمة = Logos » والكلمة هى الأصل الإلٰهى للأشياء جميعا وتتشخّص فى النبى محمد وفى الطرق عقد مماثلة لطيفة بين المذهبين الصوفى والمسيحى فالتعابير التى تُنسَب إلى مؤسِّس الإسلام هى بعينها التى نَسبها للمسيح القديس يوحنا ، والقديس بولس ، وعلماء اللاهوت المتأخرون من متصوفة المسيحيين

ومن هنا دعى محمد « نور الله » ؛ وقيل عنه إنه وجد قبل خلق الكون ومن مناقبه أنه أصل الحياة جميعها ماكان منها ومايكون وهو الإنسان الكامل الذى تجلت فيه جميع الصفات الربانية وتُنسَب إليه الرواية الصوفية هذا الأثر (من رآنى فقد رأى الله)

ومذهب « الكلمة » يحتل فى الفكر الإسلامى منزلة ثانوية ، وذلك مالابد منه ، إذا انحصر واجب الإنسان فى تحقيق توحيد الله وأوضح ميزات التصوف الشرقى - من حيث أنه معارض للتصوف الأوربى - هو إدراكه العميق للوحدة الشاملة النافذة فى كل شئ التى يذوب فيها كل مميز من مميزات الشخصية

وليس مقصود الصوفى أن يتشبه بالله ولا أن يشارك بشخصه فى الطبيعة الإلهية ؛ بل أن يهرب من حجاز ذاتيته الباطلة . حتى يتأتى له الاتحاد ثانية بالواحد الموجود المطلق

والاتحاد - على مايقول الجامى - يتهيأ بجعل القلب واحدا وذلك بتطهيره وحبسه عن الاتصال بشئ خلا الله ؛ سواء فى الرغبة أو فى الإرادة ؛ وسواء فى العلم أو فى المعرفة ورغبة الصوفى أو إرادته ، لابد أن تصرف صرفا عن الأشياء جميعا ؛ المرغوب فيها والمراد ولابد كذلك أن تُطرَد من خياله الواعى كل موضوعات العلم والعرفان ولابد أن توجّه أفكاره جميعا إلى الله لاغير وألا يذكر معه غيره

وما دام أسيرًا فى أحبولة الشهوة والهوى ، فمن العسير عليه أن يرعى هذه الصلة مع الله فإذا استعلن فيه التأثير القاطع لذلك الجذب ، فطردت سوابق الانشغال بالمحسوسات وإدراكها ، من وجوده الباطن ؛ هيمن السرور بالوصال الربانى ، على الملذات الجسدية ، والأفراح الروحية وانتهت مجاهدة النفس ، ذلك العمل المضنى ؛ وملأت حلاوةُ التأمل روحَه نشوة

وإذا أدرك المريد المخلص فى نفسه بداية هذا الانجذاب ، وهو السرور فى ذكر الله ، فليحبس عقله وقلبه على تغذيته وتقويته ، وليجعل نفسه بمنأى عما لايتفق مع هذا الانجذاب ، وليعتقد أنه إن طلب الخلود برعاية هذه الصلة ، فلن يكون قد أدى واجبه على الوجه المطلوب

* * *

ضرب الحب وتر الحب فى قيثارة روحى
فصيرنى حبا من قمتى إلى أخمص قدمى

* * *

لم يكن إلا لمس لحظة ، حتى صار
وقت العبادة المفروضة إثما

* * *

والحقيقة المسلَّمة عند الصوفية ، أن « ماليس فى الإنسان لا سبيل له إلى معرفته » والعارف - الرجل المختار - لا يستطيع أن يعرف الله ، ولا أن يعرف شيئا من أسرار الكون ، مالم يجدها جميعا فى نفسه فهو « العالم الأصغر » وهو « مثال صورة الله » وهو « باصرة الدنيا ، يرى فيها الله آثاره هو » وفى معرفته لنفسه - كما هو على حقيقته - معرفة الله وهو يعرف نفسه بمعرفة الله ، فالله أقرب إلى كل شئ من معرفة الشئ لنفسه

فالصوفية إذا اتحاد هى تحقيق للقول بأن ظهور « الغيرية » إلى جانب « الأحدية » حُلْم خادع كذاب والمعرفة تُرقِد هذا الشَّبحَ الذى يكثر التردد على غير المجتبين ، طوال حياتهم ؛ وينتصب كحائط من ظلام دامس ، بينهم وبين الله والمعرفة تعلن أن (الأنا) ليست إلا رسما فى الكلام ، وأن الشخص لا يستطيع حقيقة أن يعزو إلى نفسه أى إرادة ، أو إحساس ، أو فكر ، أو عمل

وقد سمع النفرى الهاتف الربانى يقول له

« متى رأيت نفسك ثابتا ، ولم ترنى فى الرؤية مُثْبِتًا ، حجبت وجهى ، وأسفر لك وجهك ، فانظر إلى مابدا لك ، وما توارى عنك » (١)

[إذا اعتبر الإنسان نفسه موجودا فى الله ؛ وذلك بأن يكون عنصر الربانية فيه مهيمنا على عنصر الجسدانية ، مفنيا له ؛ فلا يرى شيئا غير الله أما إذا اعتبر لنفسه وجودا مستقلا ، بدت له أنانيته الباطلة ، واستترت منه حقيقة الله]

* * *

« وقال لى لاتنظر إلى الأبداء ، ولا إلى البادى ؛ فتضحك وتبكى وإذا ضحكت وبكيت ، فأنت منك لامنى » (٢)

---

(١) المواقف ص ٥ س ١ ، ٢

(٢) المصدر نفسه ص ٥ س ٣ ، ٤

[من يُقِم للكشف الربانى اعتبار فهو آثم بالشرك ، من حيث إن الكشف يستلزم كاشفا ، ومكشوفا ومن يُقم للمكشوف - وهو جزء من الكون - وزنا ، يُقم وزنا لشئ غير الله والضحك دليل فرح بما كسبتَ ، والبكاء دليل حزن على مافقدتَ وكلاهما عمل (الأنا) والعارف لايضحك ولا يبكى]

* * *

« وقال لى إن لم تجعل كل ما أبديتُ وأبديه وراء ظهرك لم تفلح ، فإن لم تفلح لم تجتمع على » (١)

[الفلاح هو الاعتقاد الحق فى الله ، وهو يستلزم انصرافا كاملا عن الخلق]

* * *

وهذه المذاهب - منطقيًا - تلغى كل قانون دينى أو أخلاقى وليس عند خيال العارف مثوبات أو عقوبات ربانية ، ولا مقاييس للحَسَن أو القبيح ، وعنده أن كلمة الله المكتوبة ، قد نسخها كشفه اللطيف المباشر يقول أبو الحسن الخَرَقانى (٢) « لا أقول إن الجنة والنار غير موجودتين ولكنى أقول : ليستا عندى شيئًا ، لأن الله خلقهما جميعًا ، وليس لمخلوق مكان حيث أكون »

ومن هنا كانت جميع أشكال الأديان متساوية ، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية وليس شيئًا عقيدة يعتقدها الإنسان ، أو شعيرة يؤديها !

* * *

(١) المواقف ص ٥ س ٥ ، ٦

(٢) أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى ، نسبة إلى خرقان - بفتح الخاء والراء والقاف - قرية فى جبال بسطام كبيرة ، كثيرة الخير ، على طريق استراباد ، له الكرامات الظاهرة ، والأحوال السنية ، راض نفسه وأجهدها مات يوم عاشوراء سنة خمس وعشرين وأربعمائة (ديسمبر ١٠٣٣) وكان له يوم وفاته ثلاث وسبعون سنة

اللباب حـ ١ ص ٣٢٦

المسجد الحق يقوم فى قلب طاهر مقدس
فدع الناس يعبدون الله فيه
حيث يقيم ؛ لا فى مسجد من حجارة

وبين خليط العقائد والمعتقدين ، لايرى العارف إلا معبودًا واحدًا حقيقا بالعبادة ويرى ابن عربى [١] أن هؤلاء الذين يعبدون الله فى الشمس يرون الشمس ، والذين يعبدونه فى الأحياء ، يرون أحياء ، والذين يعبدونه فى الجماد يرون جمادا ، والذين يعبدونه وجودًا صمدانيًا ليس كمثله شئ ، يرون مالا مثيل له . فلا تصل نفسك بعقيدة بعينها كل الوصل ، فتكفر فى البقية فإن وصلت نفسك فقدت خيرا كثيرا لا ! بل لم تستطع أن تعرف الحق الصراح فى الأمر والله – وهو موجود فى كل زمان ومكان ، قادر على كل شئ – لاتحده عقيدة واحدة وهو يقول ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ ﴾ [البقرة الآية ١١٥] . وكل إنسان يمجد ما يعتقد ، فإلهه مخلوقه ، وفى تمجيده تمجيد لنفسه . وهو لذلك يعيب عقائد غيره ، التى لو أنصف ماعابها فإن عيبه لها قائم على جهل ، ولو أدرك قول الجنيد « لون الماء لون إنائه » لم يدخل نفسه فى عقائد الناس ، ولأدرك الله فى كل معتقد يقول حافظ [٢] ، وكأنه مفكر حر أكثر منه صوفيا

---

(١) محى الدين بن العربى ، الصوفى الكبير ، وصاحب المؤلفات العديدة فى التصوف كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب ، ثم تزهد وساح ، ودخل مصر والشام والحجاز والروم . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يحط عليه كثيرا توفى ابن عربى سنة ثمان وثلاثين وستمائة

لواقح الأنوار حـ ١ ص ٢١٩

(٢) حافظ الشيرازى شاعر فارسى ، اسمه ولقبه شمس الدين محمد . ولد فى شيراز قبل سنة عشرين وأربعمائة من الهجرة (١٣٢٠ م) حفظ القرآن الكريم فى حداثته . وانصرف إلى دراسة الفقه والعربية والأدب ، وكان شيعيًا معتدلا ، من الإثنى عشرية ويبدو أنه كان يقول بقدم القرآن

وحافظ أرق شعراء الغزل وأعظمهم ، مترفع عن الابتذال ، وله إلى جانب أشعاره شروح على « الكشاف » للزمخشرى ، وعلى المصباح . توفى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) بشيراز .

دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٢٥٣ - ٢٥٧

الحب يكون حيث يسقط عن وجهك قناع العظمة
وسياق فوق حوائط دير ، أو أرض حان
تتلعلع النار المقدسة
أو حيث يسبح العابد المُغتَمّ ربه بالليل والنهار
أو حيث صليب المسيح وأجراس الكنيسة ، تدعو للصلاة .

* * *

ولعل التصوف أن يعقد يده مع التفكير الحر – وكثيرا ماعقد – ولكنه لايكاد يفعل ذلك مع الفِرَق وذلك يبين لنا كيف كانت الأغلبية الساحقة من الصوفية ، معدودين – وإن فى الظاهر – من أهل السنة فى الجماعة الإسلامية

يقول عبد الله الأنصارى إنه كان من ألفى شيخ صوفى عرفهم ، شيعيان اثنان لاغير

وقد قصّ رجل ، من نسل الخليفة علىّ ، وكان شيعيًا غاليا ، القصة التالية :

أرسلنى والدى إلى شيخ فى الله ، لزمته خمسة أعوام ، لم أنقطع عنه يوما واحدا ، فتعلمت منه درسًا مفيدا ، لن أنساه أخبرنى أنى لن أعرف شيئًا ألبتة عن التصوف ، مالم أدع أصالة الكبرياء ، الذى استشعره بنسبى

وقد وصف غير المتعمقين من الباحثين « البابية » بأنها ثمرة من ثمار التصوف .

ولكن « عقيدية الصوفية Dogmatism » تناقض طبعًا « اختيارية البابية Electicism »

والصوفى ، كلما زاد معرفة بالله ، قَلَّت حماقاته الدينية فالشيخ عبد الرحمن بن الصباغ ، الذى ضاق ذرعًا بالعيش فى صعيد مصر ، لكثرة من به من اليهود والنصارى قال فى أخريات أيامه إنه ليود معانقة اليهودى أو النصرانى ، كما يعانق أحد أبناء دينه

وإذا كانت الأشكال ، التى يخطئها العد ، من العقائد والشعائر ، تعتبر ذات قيمة خاصة تتناسب مع الإحساس الباطن الذى ألهمها ؛ فهى تبدو من وجه آخر حُجُبًا دون الحق وحواجز يسعى القائلون بالاتحاد جاهدين فى إلغائها وتحطيمها

هذه الدنيا ، وتلك الأخرى ، بيضة فيها الطائر
قابعًا فى الظلمة ، محطوم الجناح ، محقرا مطرودا
فاعتبر الكفر والإيمان كصغار البيضة وبياضها ،
يقوم بينهما - واصلا فاصلا - حاجزٌ لايتخطيانه
فحين طوى ذو الجلال البيضة تحت جناحه كرمانة ،
اختفى الكفر والإيمان ، فمد طائر الاتحاد جناحيه

* * *

والصوفى الكبير ، أبو سعيد بن أبى الخير ، حين يتحدث بلسان القلندرية (١) - متجولة الدراويش - يعبر عن قواعدهم ، فى تحطيم هذه الأوثان ، فى شجاعة تأخذ بالألباب ، حين يقول

لن نؤدى مافرض علينا من واجب مقدس ،
مالم نذر كل مسجد تشرق عليه الشمس حطاما
ولن يظهر المسلم حق المسلم ،
مالم يصر الإيمان والكفر واحدا

* * *

ومثل هذا الإعلان الصراح ، بالحرب على الدين الإسلامى قليل وبرغم اتساع الهوة وعمقها ، بين الصوفية الممتلئة بريح الاعتداد ، وبين الإسلام السنى ، فكثير من المتصوفة - إن لم تكن كثرتهم الغالبة - يؤدون جزية الخضوع للنبى ، ويرعون رسوم التقوى الظاهرة ، المفروضة على جميع

---

(١) طريقة القلندرية منسوبة إلى « قلندر يوسف » عربى أندلسى ، معاصر للحاج بكتاش (مؤسس البكتاشية) ، وقد ظهر مؤسسو هذه الطائفة ، أول ماظهروا ، فى دمشق سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم ، فمنعهم السلطان الملك الناصر حسن ، حفيد قلاوون سنة ٦١٠ هـ من ذلك ، على مايقول المقريزى وقد نقلها إلى مصر الشيخ جمال الدين الساوى ، المدفون فى زاوية بدمياط وكان زيهم مزيجا من الزى الفارسى والمزدكى ، وكانت أخلاقهم فى منتهى الإنحلال ، بل إنهم كانوا لا يأخذون أنفسهم بشعائر الدين ، ومقومات الأخلاق

Incyclopaedia of Islam. v, 2. P,676

المسلمين يد أنهم قد زودوا هذه الشعائر والرسوم ، بمعنى جديد ، صرفوها به عن حقيقتها ، ولكنهم لم يدعوها أصالة . وإليك الحج مثالا فهو عند الصوفى الألمعى هراء وهواء ، إن لم تصاحب حركاتُ القلب شعائره المتعاقبة ، التى يشتمل عليها

« جاء رجل إلى الجنيد ، بعد أن فرغ من حجه فقال له الجنيد «أرحلت عن جميع ذنبك ، حين رحلت عن دارك ؟ » فقال « لا ! » قال « فأنت لم ترحل ! » ثم قال « وبعد كل مرحلة نزلت ، حيث تلبَّث الليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟ » قال « لا ! » قال الجنيد «فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة ! » ثم قال « وحين لبست ثوب الإحرام ، فى موضعه ، هل خلعت صفات البشرية عنك ، وأنت تخلع ثيابك ؟ » قال « لا ! » قال الجنيد « فأنت لم تحرم ! » ثم قال « وحين وقفت بعرفة ، هل تأملت فى الله لحظة واحدة ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تقف بعرفة ! » ثم قال « وحين أفضت إلى المزدلفة ، وقضيت مناسكك ، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تُفض إلى المزدلفة ! » ثم قال « وحين طُفتَ بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلٰهى فى بيت الطهر ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تطف بالبيت ! » ثم قال « وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت الصفاء والمروءة ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تسع ! » ثم قال « فلما جئت إلى مِنًى هل ذهبت عنك جميع المُنَى ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تزر مِنًى ! » ثم قال له « فلما وصلت إلى المنحر ، ونحرت القربان ، هل نحرت أسباب متاع الدنيا ؟ » قال « لا ! » قال « فأنت لم تنحر ! » ثم قال له « فلما رميت الجمار ، هل رميت ماصحبك من أفكار جسدانية ؟ » قال « لا ! » قال الجنيد « فأنت لم ترم الجمار ؛ بل ولم تؤد على ذلك حجًا ! »

وهذه الأقصوصة ، تقابل ظاهر الشريعة فى الدين ، بباطن الحقيقة فى التصوف كما أنها تبين أنه ليس فى الإمكان فصل إحداهما عن الأخرى يقول الهجويرى

« الشريعة من غير الحقيقة نفاق ، والحقيقة من غير الشريعة إلحاد

وتداخلهما كتداخل الروح والجسد ؛ إذا فصلت الروح عن الجسد ، يضحى بعدها جثة هامدة ، وتتلاشى الروح ، كما يتلاشى الريح وإقرار المسلم بالإسلام يشملهما جميعا ، فقوله (لا إله إلا الله) هو الحقيقة ، وقوله (محمد رسول الله) هو الشريعة فمن أنكر الحقيقة كفر ، ومن رفض الشريعة تزندق » (١)

وأواسط الطرق ، وإن تكن آمنها ، عند من يرسلون الحكم والأمثال ، عسيرة على من يمارس السير فيها ، وإنما أمكن التوفيق بين القرآن ، وبين المذهب الباطن ، الذى انتزعه الصوفية ، بعد ركوب سبيل التعسف والمتصوفون قد أدوا - دون ريب - عملا جليلا للإسلام فهم ، بنبذهم قشور الدين ، وإصرارهم على تحصيل لبابه ، بتنمية المشاعر الروحية ، وتطهير البواطن ، لا بالعمل الظاهرى ، قد مكنوا لملايين الناس من حياة غنية عميقة

وهذا نمو مشروع جليل الفائدة لشريعة النبى بيد أن النبى موحد ؛ والصوفية - مهما كان ظاهرهم ، أو تصورهم - ثيو صوفيون ، أو اتحاديون ، أو حلوليون وإذا تكلموا ، أو كتبوا فى عقائد الدين ، اتخذوا لغة ليس فى الطوق التوفيق بينها وبين نظرية التوحيد ، التى سنأخذ فى درسها

فعفيف الدين التلمسانى ، الذى قدمت بعض المقتطفات من شرحه على كتاب النفرى ، يقول فى صراحة « إن القرآن كله إشراك » .وتلك حقيقة صادقة غاية الصدق عند الاتحاديين ؛ وإن لم تجرؤ إلا قلة من الصوفية على أن تقول ذلك .

والاتحاديون من المتصوفة ، يعترفون بوجود التعارض ، ولكنهم لا يرونه تعارضًا حقيقيا ، ولعلهم أن يقولوا « الشريعة والحقيقة شئ واحد ، وإنما

---

(١) يقول القشيرى « الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والخلق إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده »

الرسالة القشيرية ص ٥٦ س ٨ - ١٢

يتعدد باختلاف أوضاعه ، فالشريعة لكم ، والحقيقة لنا وإذا خاطبناكم خاطبناكم حسب إدراككم إذ ماهو لحم عند العارفين ، قد يكون سمًا زعافا عند غير السالكين والأسرار الرفيعة لابد أن يضن بها على الآذان الترابية وإنما هو العقل البشرى ، الذى يزدوج الواحد عنده ، ويرجح الشريعة على الحقيقه فافْنَ عن عالم المتناقضات ، وصِرْ واحدا مع الله ، الذى لا نقيض له »

والعارف يقرر أن الشريعة نافذة ، وأنها ضرورية فى المحيط الخلقى ، فما كان خير أو شر ، إلا والشريعة من فوقهما آمرة ناهية ، مثيبة معاقبة وهو يعلم، من ناحية أخرى ، أن ليس موجودا ، على الحقيقة ، غير الله ، ولا فاعلا سواه . ومن هنا كان الشر - إن يكن موجودًا على الحقيقة - لابد رَبّانيًا ، وكانت الآثام - إن تكن على الحقيقة آثام - لابد من فعل الله

ولكن النتيجة غير صادقة ، لان المقدّمات غير صادقة فليس للشر وجود على الحقيقة ، وإنما هو العدم ، الذى هو انعدام الموجود وتخلفه ، كالظلمة لاتكون إلا من تخلف النور . قال النورى : « رأيت النور مرة ، فتعلق به بصرى ، فصرت نورًا » فليس عجيبا لهذه الأرواح المشرقة ، الرافضة فى كبرياء المظاهر الكاذبة للدين والأخلاق ، فى عالم الأشباح ؛ أن تنادى مع جلال الدين

رجل الله تصيره الحقيقة عالما
رجل الله لا يتلقى العلم من كتاب
رجل الله من وراء الإيمان والكفر
وعند رجل الله يستوى الخطأ والصواب

* * *

ويجب أن لايغيب عن البال أن هذه نظرية التحقق ، وأن من نضعهم فوق الشريعة إنما هم الأولياء ، والمرشدون الروحيون ، والثيوصوفيون المتعمقون الذين حظوا بخاص عناية الله ، وليسوا فى حاجة إلى كبح جماح ، أو إمساك زمام ، أو إيقاع عقوبة

وقد أدت هذه النظرية ، فى أحوال كثيرة ، إلى التفلت من الشريعة ،

والخروج عن جادة الاستقامة ، كما هو حال « البكتاشية » [١] وغيرهم من الجماعات ممن يدعون « الدراويش الآثمون »

وهذه النظريات عينها ، قد أنتجت عين النتائج فى أوربا ، خلال العصور الوسطى ولا يسع المؤرخ المنصف ، أن يغفل المفاسد ، التى تعرضت لها صوفية ذاتية خالصة بيد أننا الآن ، نعرض للوردة ذاتها ، غير ناظرين إلى مافيها من أمراض

وليس كل الصوفية عارفين ومن لم يبلغوا بعد درجة المعرفة يتلقون - كما بينت آنفا - عن شيوخهم العارفين الإرشاد الملائم لحاجاتهم

وجلال الدين الرومى ، فى مجموعة من الشعر الغنائى ، تسمى (ديوانى شمسى تبريزى) [٢] ، قد أرخى العنان لحماس حلولى ، يرى الأشياء جميعا قد أسبغ عليها ثوب الحلول وذلك حين يقول

خلعت الإثنينية ، ورأيت العالمين واحدا

---

(١) طريقة الدراويش البكتاشية منسوبة إلى الحاج بكتاش ، ولى من أولياء المسلمين ، حياته غامضة يقال إنه ولد بنيسابور ، ودرس على أحمد يسوى كما يقال إنه مات سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) وقد كان لهذه الطريقة صلة قوية بالإنكشارية ، حتى قيل إنهم اعتنقوا الإسلام على يد بكتاش ، فى عهد أورخان ويتفق البكتاشية مع (القزلباش) فى شرقى آسيا الصغرى ، و (العلى إلهى) أى مؤلهى على من الشيعة ، فى أصول عقائدهم ولآراء الصوفية عن المساواة فى الأصل بين جميع الأديان وعدم فائدة الشعائر شأن كبير ، فى عقائد البكتاشية وبقيت فى طريقة هؤلاء الدراويش عناصر نصرانية ، ولا أدرية ، ووثنية وهم ، رغم ادعائهم أنهم من أهل السنة ، من غلاة الشيعة يؤلهون عليا ، ويذمون الخلفاء الثلاثة ويعترفون بالأئمة الإثنى عشر ، ويبجلون من بينهم خاصة الإمام جعفر الصادق وتأثر البكتاشية تأثرا ظاهرا بالمسيحية فعندهم مايشبه العشاء الربانى ، إذ يوزعون النبيذ والخبز والجبن فى اجتماعاتهم ، ويقولون بالتثليث ، وقد أحلوا عليا محل عيسى (الله ، محمد ، على) ويعترفون بخطاياهم إلى شيخهم ، ويتلقون منه المغفرة . والخمر غير محرمة عندهم ، ولها أثر واضح فى طريقتهم كما يعتقدون كذلك فى تناسخ الأرواح ولهم تكايا فى نواحى العالم الإسلامى منها تكيه بمصر فوق المقطم

دائرة المعارف الإسلامية حـ ٤ ص ٣٧ - ٤٠

(٢) نشر الأصل الفارسى من (ديوانى شمسى تبريزى) مع ترجمة انجليزية له ، وقدم له وعلق عليه الأستاذ نيكلسون فى كمبردج سنة ١٨٩٨ م

عن واحد أبحث ، وواحدا أعرف ، وواحدًا أرى ، وواحدا أنادى

* * *

لقد انتشيت بجام الحب ، فالعالَمَين قد فنيا من إدراكى
ولست مشغولا بغير تساقى الشراب ومناقلته

* * *

بيد أن جلال الدين فى « المثنوى » والمثنوى ذو شهرة وقداسة ، حتى لقد دعوه « قرآن فارس » ، نجده يشرح المذاهب الصوفية فى أسلوب أكثر رزانة من ذى قبل ، ويرى مَعْدَلة سبل الله للإنسان وهو وإن يكن متفائلا ، عميقا فى تفاؤله ، متفقا مع الغزالى ، فى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، لا يتخلص فى يسر ، كما يتخلص غيره من مشكلة الشر ، بأن يقول : إنه شئ لا حقيقة له ؛ بل يجهد أن يبين أن الشر ، أو مايبدو لنا شرًا ، جزء من النظام الإلٰهى ، والاتساق الربانى وسأقتطف بعض العبارات من استدلاله ، وأدع القارئ يحكم على مدى نجاحه

وعلينا أن نتذكر أن الصوفية يرون العالم صورة ظاهرة منعكسة لله والنور الربانى ، متسلسلا فى جدول من الفيوضات ، ينصب آخرًا على ظلمة العدم ، فكل ذرة منها تعكس صفة من صفات الله فالصفات الجميلة ، من مثل الحب ، والرحمة ، تنعكس فى شكل السماء والملائكة ، والصفات المخيفة ، من أمثال الغضب والعقاب تنعكس فى شكل النار والشياطين والإنسان يعكس جميع هذه الصفات ، المحبوب منها والمخيف على السواء ، فهو جماع السماء والجحيم ويلمع إلى ذلك عمر الخيام [١] حين يقول

---

(١) عمر الخيام الشاعر الفلكى الفارسى المشهور ، وصاحب الرباعيات ، التى ذاع صيتها ، وترجمت إلى معظم اللغات العالمية عن أصلها الفارسى ولد بمدينة نيسابور من أعمال خراسان ، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الشطر الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى) وتوفى سنة سبع عشرة وخمسمائة (سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف من الميلاد) ودفن بنيسابور

محمد السباعى رباعيات عمر الخيام المقدمة ص ٧ – ٢٣

الجحيم شرارة من ماحِل آلامنا
والسماء نفثة من أوقات سرورنا

* * *

دو بيت صاغه « فتز جيرالد Fitz Gerald » فى هذه المقطوعة الرائعة
ما السماء إلا خيال رغيبة تحققت

* * *

وما الجحيم إلا شبح روح على النار تعذبت
دع عنك هذه الظلمة ، التى منها عن قريب
أرواحنا تملّصتْ ، فسوف تموت

* * *

فجلال الدين قد جعل الله – من وجه – موجد الشر ؛ ولكنه ، فى الوقت عينه ، جعل الشر فى الحقيقة خيرا ، حين ينسب إلى الله ؛ إذ هو انعكاس لبعض الصفات الإلهية ، التى هى فى ذاتها خير محض ، فإن يكن الشرّ شرًا على الحقيقة ، فإنما نبع ذلك من العدم »

وقد وضع الشاعر قيمًا مختلفة لذلك الاصطلاح ، حين ينسب إلى الله ، وحين ينسب إلى الإنسان   فحين ينسب إلى الله لايكون العدم شيئا ، لأن الله هو الوجود الحق ؛ بيد أنه حين ينسب إلى الإنسان يكون أصل الشر ، الذى تنبنى عليه نصف الطبيعة البشرية   هو فى إحدى الحالين سلب صرف ، وفى الأخرى يفور بالضرر حقيقة

ولسنا فى حاجة إلى أن نختلف مع الشاعر ، بسبب صيرورته إلى الكآبة فى منطقه . فهناك بعض المناسبات ، حيث يكون الشعور الأخلاقى المرهف جديرا ببعض التفكير الرشيد

* * *

ومذهب الوحدة الربانية ، يشمل فى ثناياه القضاء والقدر الأزليين فحيث إن الله قد كان ولا شئ معه ، فليس هاك فاعل إلا هو ، ولا فعل إلا فعله هو ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [سورة

الأنفال : الآية ١٧] . والجبر لا يشعر به إلا أولئك الذين لا يعشقون . ومعرفة الله حبه ولعل العارف أن يجيب كما أجاب الدرويش الذى سئل كيف يطعم ، فقال

أطعم كما يطعم من بعظمته يدور العالم
وترتفع السيول ، وتفيض الأنهار ،
وتسير النجوم فى مسالكها

* * *

ويتعلق بإشارة منه الموت والحياة
ويطير إلى أقاصى الأرض
رسله فى السراء والضراء

* * *

تلك هى « الحقيقة » ولكى يعين جلال الدين من لايقدر على إدراكها ، دافع عن عدالة الله ، بأن الإنسان يريد مايفعل ، وإن تكن إرادته خاضعة للإرادة الربانية وهو – وقد واجه هذه المشكلة لماذا يخلق الله الشر ويكتبه على الناس؟ – يستدل بأن الأشياء تبين بأضدادها فوجود الشر ضرورى لظهــور الخير !

العدم والنقص ، حيثما كانا مرايا جمال الكون
أين تبدو قدرة جابر العظام ،
إلا فى مريض رقد محطوم الساق ؟

* * *

كيف يظهر الكيميائى براعته ،
إن لم تمح البوتقة بعض خسيس المعادن ؟

* * *

وفوق ذلك ، فالقدرة الربانية الشاملة ، لا تتحقق تمام التحقق ، إن لم يخلق الشر

هو أصل الشر ، كما زعمتم ،

ولكن الشر لا يناله ، وإنما يدل على جلاله

* * *

استمع منى نشيدا ، الفنان السماوى قد صور
الجميل والقبيح ففى إحدى الصورتين
فواتن النساء ، فى أرض مصر ، يحملقن فى شباب يوسف ،
فى افتتان ، وفى أخرى ، والفنان واحد
نيران الجحيم ، وإبليس تصحبه شياطينه

* * *

كلتاهما صنعة فريدة ، خلقت لغايات كريمة
لتكشف عن صادق جلاله ، أو لتروع مفكرى ربوبيته

* * *

ولو لم يستطع خلق الشر ، لكان ذلك نقصا فى قدرته
ولذلك أوجد الكافر ، والمسلم الصادق ،
ليكونا دليلا عليه ، وليعبدوا ربا واحدا قهارا

* * *

وجلال الدين الرومى ، إذ يتصدى للرد على اعتراض مؤداه « إذا كان الله قد خلق الشر ، فلابد أن يكون هو شرًا » ، يصطنع الاستدلال المنتزع من الفن ، فيرى أن قبح الصورة ليس دليلا على قبح المصوِّر

وفوق ذلك فلن يتأتى كسب الفضيلة الصحيحة - وهى ثمرة إخضاع النفس - دون وجود الشر ؛ فلابد من تفتيت الخبز قبل أن يتخذ ثريدًا ؛ ولابد من عصر العناقيد قبل أن تتخذ من عصارتها الخمر

وأخيرًا فأكثر الشر ، شر فى الظاهر فما يبدو لعنة للواحد يبدو رضوانًا للآخر . لا ، بل إن الشر نفسه يتقلب خيرًا لدى الصالحين ولا يرتضى جلال الدين أن يكون شئ ما شرًا خالصا يقول

يبتاع ذوو الغفلة زائف النقود لشبهها بصحيحها
فإن لم يكن فى الدنيا نقود صحيحة مضروبة ، يتداولها

الناس ، فكيف يزيف المزيفون ؟ ليس الزيف شيئا إلا
أن يكون الحق معه حتى يجعله متميزا . إن حب
الصواب هو الذى يوقع الناس فى الخطأ
اخلط السم بالسكر ترهم يحشون به أفواههم

* * *

لا تقل إن العقائد كلها هراء ،
فإن بعض الحقيقة فيها
وإلا لما خدعت أحدا
لاتقل يالهذه الخيالات الخالصة
فليس خيال فى الدنيا باطل صرف

* * *

وبين أوشاب الدراويش فقير صادق
جوِّد البحث ، وأنت لابد ستجده

* * *

وهذا بدون ريب ، مذهب جدير بالملاحظة وقد مات جلال الدين بعد سنوات قلائل من مولد « دانتى Dante » [١] ، بيد أن الشاعر المسيحى قد وقع بمنزلة دون مستوى التسامح والمروءة ، الذى وصل إليه معاصره المسلم بكثير

ولكن كيف يمكن أن تدرك الروحُ الخير فى الشر ؟

يقول جلال الدين إن ذلك ممكن ، إذا اتخذت له أسبابه ، من الحب ، والمعرفة التى يستطيع الحب وحده أن يسبغها على المرء ؛ كما وعد الله فى

---

(١) دانتى الليجيرى Dante Alleghieri أعظم شعراء ايطاليا فى مفتتح عصر النهضة ولد سنة ١٢٦٥ م فى فلورنسا ، وقام بدور سياسى فى مسقط رأسه ، حيث قام بعدة سفارات سياسية مختلفة وأسندت إليه بعض المناصب الهامة ولكنه أقصى بعد ذلك بسبب الصراع الحزبى بين (البيض Blancs) و (السود Noirs) سنة ١٣٠٢ م فاستقر حينا فى فيرون ثم انتقل عنها إلى راقن حيث مات سنة ١٣٢١ وأشهر مؤلفاته « الكوميديا المقدسة »

الحديث القدسى (ماتقرّب إلىّ المتقربون بمثل أداءماافترضتُ عليهم ولايزال العبد يتقرّب إلىّ بالنوافل ، حتى يحبنى وأحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا فبى يُبصر ، وبى يَسمع [١]

* * *

وإن من حق الحب الصوفى ، أن يعالج فى فصل مستقل ولا يتخيلن القارئ أن موضوعا جديدا سيفتح أمامه ، إذ المعرفة والحب متساويان روحيًا . فكلاهما يعلّم من أفيض عليه الحقائقَ عينها التى يعلّمها الآخر ، ولكن بلغة مغايرة

* * *

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٥ س ٤ - ٧

الفصل الرابع

الحب الإلهى

أيّما فرد كان على علم بالشعر الصوفى فى الإسلام ، وإن قل هذا العلم يدرك أن شوق الروح إلى الله ، قد عبر عنه الصوفية فى عبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين ، وذوى النسيب من الشرقيين بل إن التشابه ليشتد أحيانا ، حتى ليلبس علينا المعنى الذى أراده الشاعر ، لو لم تكن على بينة مما يريد

ولعل هذا اللبس ، فى بعض الأحيان ، أن يتخذ ذريعة لغرض فنى ، كما فى أناشيد حافظ بيد أنه من الهين ، أن تتوهم أن قصيدةً صوفية قصيدةٌ خمرية أو غَزلية ؛ حتى حين لايدع الشاعر قُرّاءَه يتأرجحون بين السماء والأرض

وابن عربى — وهو أعظم ثيوصوفى أنتجه العرب — رأى نفسه مجبرا على أن يكتب شرحا لبعض أشعاره ، التى شدا فيها بمفاتن حسنائه ، ليدفع التهمة الخاطئة عنه نفسه [1] وإليك قليلا من هذه الأشعار

ياحسنها من طفلة غُرّتُها تضئ للطارق ، مثل السُّرُج
لؤلؤة مكنونة فى صدف من شعرَ ، مِثْل سواد السَّبَج [2]
لؤلؤة غواصها الفكر ، فما تنفك فى أغوار تلك اللُّجَج

---

(١) يقول ابن عربى « كان سبب شرحى لهذه الأبيات ، أن الولد بدرا الحبشى والولد إسماعيل بن سودكير ، سألانى فى ذلك . وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء ، بمدينة حلب ، ينكر أن هذا من الأسرار الإلهية ، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوبا إلى الصلاح والدين . فشرعت فى شرح ذلك »

ذخائر الأعلاق ص ٤ س ١٥ — ١٩

(٢) السبج الخرز الأسود

يحسبها ناظرُها ظبى نَقًا من جيدها، وحسن ذاك الغَنَج [١]

ولقد قيل إن الصوفية قد جعلوا من ذلك الأسلوب الرمزى قناعا ، يسترون به الأمور التى رغبوا أن يكتموها [٢] وهذه الرغبة طبيعية ، عند قوم يدعون أنهم خصوا ، دون غيرهم ، بمعرفة الباطن وفوق ذلك ، فإن التصريح البيّن بما يعتقدون ، لعله أن يهدد حريتهم ، بله حياتهم فإن تركنا جانبا كل هذه الدوافع ، فالصوفية قد اصطنعوا الأسلوب الرمزى ، لأنهم لم يجدوا طريقا آخر ممكنا ، يترجمون به عن رياضتهم الصوفية

والعلم بخفايا عالم الغيب المجهول ، الذى ينكشف فى رؤيا جذبية ، قلما يحتاج إلى الإدعاء بأنه ليس فى الطوق تبيانه ، دون اللجوء إلى صور وشواهد منتزعة من عالم الحس وهذه الصور والأمثال ، مع أنها ليست خالصة الصدق ، تكشف عن معان ، وتوحى بصور ، أعمق مما يبدو على ظاهرها ويرى ابن عربى « أن العارفين لا يستطيعون أن ينقلوا مشاعرهم جملة إلى غيرهم من الناس ، وكل الذى يستطيعونه ، أن يرمزوا بها إلى الذين بدأوا بدأهم »

ويتوقف نوع الرمزية ، التى يفضلها الصوفى ، على خُلُقه وجبلته فإن كان دَيِّنًا فنانا – أعنى شاعرا روحيا – فأفكاره كذلك عن الحقيقة ، تتشح تلقائيا ثياب الجمال ، والصورِ المشتعلة للحب البشرى فوجنات الحبيب المورَّدة ، تمثل عنده ذات الله ، منكشفة فى صفاته ، وغدائرها الليلية ، تصور « الواحد » محجوبًا « بالكثرة » وإن قال

أدر الكأس علَّها أن تحُلّ إسارك

فإنما يريد أن يقول « امح نفسك الترابية فى السكر بالتأمل الإلهى »

---

(١) ذخائر الأعلاق ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٢) يقول القشيرى « وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، بعضهم مع بعض ، والإجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم لتكون معانى ألفاظهم مشتبهة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف ، أو مجلوبة بضرب تصرف بل هى معان أودعها الله تعالى قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرار قوم »

الرسالة القشيرية ص ١٠ س ٢٣ – ٢٧

وإنى لأستطيع أن أملأ الصفحات بأمثلة عديدة من ذلك

وهذه الرمزية ، فى الغزليات والخمريات ، ليست طبعا بالغريبة على الشعر الصوفى فى الإسلام بل إنها لم تبد فى غير التصوف بمثل هذا الغنى ، وعلى نحو ذلك من الصدق وكثيرا ما أخطأ النقدة من الأوربيين ، حتى إن أحدهم ليَسِم الآن خمريات الصوفية بأنها « تستلهم النبيذ بعض الشئ ، وتدفعها – فى الأغلب الأقوى – دوافع الشهوة البهيمية » ونسبة هذه التهمة إلى الصوفية جميعا كاذبة أصالة . ولا يجازف بذلك القول عاقل منصف ، درس مؤلفاتهم

ولابد لنا أن نتحقق من الأساس ، الذى أقام عليه النقدة دعواهم واتهامهم .

من المسلم به أن بين كل أرباب نحلة أدعياء كاذبين ، وفى كل قطيع شياهه السود وقد كان بين الصوفية كثير من الزنادقة ، والمجان ، ومدمنى الخمور ، فجروا قالة السوء على الإخوان الأطهار وإذا لم يكن عدلا أن نرمى التصوف المسيحى بهذه القالة ، لأن بعض فرقه وأفراده كانوا فاسدى الأخلاق ؛ فليس عدلا كذلك أن نحكم على التصوف الإسلامى جملة بفلتات هؤلاء المجان يقول جلال الدين الرومى

الله ساقينا والله خمرنا والله يعلم أى حب حبنا

ويعلن ابن عربى ، أن ليس دين أرفع من دين الحب ، والشوق إلى الله فالحب خلاصة النحل جميعا والصوفى الصادق ، يرحب بدين الحب ، على أى صورة تبدى

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن

أدين بدين الحب ، أنَّى توجهتْ ركائبهُ ، فالدين دينى وإيمانى

لنا أسوة فى بشر هند ، وأختها وقيس وليلى ، ثم مَىّ وغيلان

وقد شرح الشاعر البيت الأخير بقوله

« الحب ، من حيث هو حب ، لنا ولهم ، حقيقة واحدة غير أن

المحبين مختلفون ، لكونهم تعشقوا بكَوْن ، وأنا تعشقنا بعَيْن . والشروط ، واللوازم ، والأسباب واحدة ؛ فلنا أسوة بهم . فإن الله تعالى ماهيَّم هؤلاء ؛ وابتلاهم بحب أمثالهم ، إلا ليقيم بهم الحجج على من ادعى محبته ، ولم يهم فى حبه هيمان هؤلاء ، حـــين ذهـــب الحب بعقولهم ، وأفناهم عنهم » (١)

والكثرة الكاثرة ، من أعاظم صوفية العصر الوسيط ، عاشوا عيشة نقية حالمين بربهم منتشين به وحين يحاولون الإفصاح عن أحلامهم – وهم آدميون – يتخذون لغة الآدميين . فإن كانوا شعراء مطبوعين ، أنشأوا بأسلوب جيلهم وعصرهم

والعرب ، فى الشعر الصوفى ، يعطون الجزية عن يد للفرس . ومن شاء أن يقرأ أسرار الصوفية ، غير مشوبة بالمسائل الكلامية ، ولا مغلفة بالدقائق الغيبية « الميتافيزيقية » ، فليرجع إلى العطار ، وجلال الدين الرومى ؛ وتواليفهم فى متناول اليد ، فى الإنجليزية ، وغيرها من اللغات الأوربية وإن فى ترجمة هذه الأناشيد المعجبة حطم لبهائها ، ونزول بعاطفتها المشبوبة إلى الأرض ، إن تكن هذه الترجمة شعرا ، فأما إذا كانت نثرا ، فإنها تحجب أصالة محبة الحق ورؤيا الجمال التى ألهمتها . أصغ إلى جلال الدين حين يقول

جاء حبيبى مقرا لم تر السماء ، ولن ترى ، له مثيلا يقظان أو حالما متوِّجا بشعاع خالد لا يثنيه سيل أى سيل

* * *

فى دن حبك يارب ، غسلت روحى
وحطمت جسدى ، دار التراب

* * *

وحين بدأ قبلى وحيدا صُحْبتَه برب الكَرْم
أشعلت الخمر صدرى ، وملأت نوابضى

* * *

---

(١) ذخائر الأعلاق ص ٣٩ ، ٤٠

فلما امتلأت عيناى بصورته ، صاح من باطنى صوت
حسنا فعلت يارب الخمر والكأس الدائمة

والحب . الذى أبرز فى هذا المجاز . هو العنصر العاطفى فى الدين . هو سكر المشاهد وشجاعة الباذل وإيمان الولى ، والأصل الأصيل للتحقق الخلقى . والإدراك الروحى هو - عمليا - نبذ النفس وتضحيتها والتخلى عن كل مملوك من مال أو جاه أو إرادة أو حياة وعن كل مايضن به الناس . لوجه المحبوب دون تفكير فى جزاء

ولقد أشرت من قبل . إلى الحب على أنه المبدأ الأعلى فى الأخلاق عند الصوفية ، فلأقدم الآن بعض الشواهد على ذلك

أ - يقول جلال الدين

« الحب دواء داء كبريائنا وغرورنا بأنفسنا . وهو الطبيب لضعفنا كله ومن استعار الحبُّ ثوبه برئ أصالة من أثرته »

ب - رُمى النورى والرّقام وغيرهما من الصوفية بالزندقة وحكم عليهم بالموت فلما دنا السياف من الرقام تقدم النورى مبتدرا إلى السياف ليضرب عنقه وهو راض أَتَمَّ الرضا مبتهج أكمل الابتهاج فدهش الحاضرون وقال السّيّاف مادعاك إلى الابتدار إلى القتل من بين أصحابك ؟ فقال النورى إن دينى ينبنى على الإيثار والحياة أعز مملوك فى الدنيا وإنى آثرت حياتهم على حياتى هذه اللحظة (١)

حـ - شوهد النورى مرة يدعو ويقول

اللهم ! قد سبق فى علمك ، ومشيئتك وقدرتك ، عقوبة أهل النار الذين خلقتهم اللهم ! فإن يكن قد سبق فى مشيئتك ، التى لا تتخلف ، أن تملأ النار من الناس أجمعين ؛ فإنك قادر على أن تملأها بى وحدى ؛ وأن تذهب بهم جميعا إلى الجنة

* * *

وعلى قدر محبة الصوفى يرى الصوفى ربه فى خليقته جميعا فيحبها

---

(١) حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٥٠

جميعا . وصالحات الأعمال ، لا تساوى شَرْوَى نَقِير ، إن عَرِت عن الحب .

أبشر أيها القلب الحزين
فلإحسانك خير من ألف معبد تقيمها
ولحر استعبدته بإحسانك
يرجح ألف عبد اعتقوا

* * *

وتضم « تذكرة الأولياء » قصصا عن الرأفة بالحيوان – حتى الكلاب وهى نجسة عند المسلمين – وبالطيور وبالحشرات

يروى أن أبا يزيد البسطامى ابتاع شيئا من القرطم بهمدان وقبل أن يفصل عنها وضع فى عباءته قليلا منه ثم نسيه ولما رجع إلى بسطام تذكر مافعل فأخرج الحب فرأى فيه بعض النمال فقال « لقد أبعدت هذه المخلوقات المسكينة عن أوطانها » ثم كر راجعا ، لم يستأن بها ، إلى همدان ؛ وبين همدان وبسطام مئات الأميال [١]

وهذا التعاطف الذى ينتظم العالم ثمرة من ثمـرات « الحلول Pantheism » ونظرة الزهد فى الدنيا ، التى سادت بين متقدمى الصوفية ، والإدراك المشبوب لله على أنه « شخصية منزهة Transcendent Personality » أكثر منه « روح باطنة Immanent Spirit » دفعتهم إلى إماتة نوازعهم البشرية فى عنف

وهذه قصة قصيرة ، من حياة الفضيل بن عياض [٢] ، وهى إن لم تدفعنا إلى التأسى بها ، فلا أقل من أنها ستلمس شغاف قلوبنا

جلس ذات يوم على حجره طفل له ، قد بلغ الرابعة من عمره ، ثم تصادف أن قبّله ، كما يفعل الآباء بأبنائهـم فقال له الطفل « أتحبنى يأبت ! » فقال له الفضيل « نعم ! » فقال « وتحب الله ؟ » قال

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٩ س ٥ ، ٦

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى ، ثم اليربوعى خراسانى من ناحية مرو ، من قرية يقال لها فندين مات بمكة فى المحرم من سنة سبع وثمانين ومائة

« طبقات الصوفية ورقة ٢ ظ »

الفضيل : « نعم ! » فسأله الطفل « كم قلبًا لك ؟ » فأجابه « واحد ! »
فقال الطفل : « كيف تحب اثنين بقلب واحد ؟! » فأدرك الفضيل أن كلام الطفل نصيحة من الله وفى غيرته لربه ، جعل يجلد رأسه بالحائط ، ويتبرأ من محبته للطفل ، وأخلص قلبه لله

* * *

وأعلى صوفية الصوفى - كما مثلها جلال الدين الرومى - ترى أن « الكَوْن Phenomenal » طريق إلى « العَيْن Real »

سواء هذه الدنيا أو تلك الأخرى
سوف يفضى بك حبك وراء ذلك فى النهاية

ويقول الجامى

لاتصرف وجهك ، حتى عن الحب الترابى
مادام الحب الترابى سيرفعك إلى الحق

* * *

هل تستطيع فهم صحائف قرآنك
دون أن تتقن الأبجدية ؟!

* * *

سمعنا عن شيخ جاءه سالك ،
يستهديه النصح فيما هو بسبيله

فقال له إن تكن خطواتك عن دروب الحب غريبة.
فاذهب وتعلم الحب ، ثم عد إلىَّ
فإنك إن تخش شرب النبيذ من دن « المثَل »
فلن تستطيع اجتراع واحدة من كأس « الأمل »

* * *

ولكن حذار لا يؤخرك « المثل »
جاهد بما فى الوسع أن تعبر الجسر سريعا

فإن فشلت في حمل متاعك إلى الهدف معك
فتخفف ، ولا تدع خطواتك تبطئ على الجسر

وقد لخص « إمرسون Emerson» معنى ذلك فى قوله

« المحب الذى ينظر قسمات الجمال الربانى ، فى كثير من الأرواح ، ويفرق فى كلّ روح بين ماهو ربانى من جمالها ، وماهو ترابى نزع عن هذا العالم ؛ هذا المحب يرمى إلى الجمال الأعلى ، إلى الحب ؛ وإلى إدراك الربوبية فى خطوات على سلم هذه الأرواح المخلوقة »

ويقول الهجويرى

« محبة العبد لله ، تبدو فى قلب المؤمن التقى إكبارًا وإجلالا يملؤه ، فيبتغى رضى حبيبه ولا يتأتى له صبر ، ولا اطمئنان ، مالم يره ولا يجد الراحة مع أحد غيره ، ويزداد معرفة بذكره ، ونبذا لذكر ماسواه فالراحة حرام عليه والاستقرار شارد عنه مقطوع من العادات والروابط قد رفض كل شهوة ، وصرف وجهه إلى عرش الحب ، ودان بشريعته وعرف الله بصفاته معرفة التحقق »

ومن الضرورى أن مثل هذا الإنسان ، لابد أن يحب بنى جلدته وأيما إيذاء ألحقوه به ، يذكره بيد الله ، التى تحط عنه ذنوبه بالاقتصاص منه « وعقاب الله عين ثوابه »

يقول أبو يزيد

إذا أحب الله عبدًا ، أسبغ عليه صفات ثلاث ، دليلاً على حبه : سخاءً كسخاء البحر ، وإحسانًا كإحسان الشمس ، وتواضعًا كتواضع الأرض والمحب الصادق لا يستعظم بلية ، ولا يستكثر عبادة ، لفراسته وإيمانه الخالص »

وابن عربى يرى أن الإسلام دين الحب ، لا ريب من حيث إن النبى قد دعى « حبيب الله » [١]

---

(١) يقول ابن عربى « ما ثم دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق ... فإن محمدًا ﷺ ، له من بين سائر الأنبياء ، مقام المحبة بكمالها ، مع أنه صفى ، ونجى ، وخليل =

وبعض منابع هذا المذهب ، موجودة فى القرآن ؛ ولكن رافدها الأصيل دون ريب - ينزع عن المسيحية . وأقدم آثار الصوفية ، وقد كتبت بالعربية ، ولكن لم تصل إلينا منها إلا جذاذات لسوء الحظ ، يغلب عليها التواصى ، فى إصرار ، بالخوف من الله ، سالكة فى ذلك نهج القرآن ولكنها مع ذلك تحمل شواهد ناطقة على التأثر بالتقليد المسيحى المعارض ؛ وهو « حب الله » .

* * *

وحب الصوفية لله ، فى الإسلام وفى المسيحية ، قد انقلب إلى انجذاب ، وحماس ؛ بسبب الوقوع تحت تأثير « ديونيسيوس Dionysius » وغيره ، من كتاب الأفلاطونية الحديثة ؛ ذلك الانجذاب الذى وجد فى الخيال الحسى ، للحب البشرى ، خير وسيلة للتعبير عن نفسه

ويلاحظ الأستاذ « إنجه Dr. Inge » أن الصوفية يبدون - وهم أسيويون أصدق مايكون الأسيويون - وقد حاولوا أن يضفوا صبغة رمزية قدسية ، على الانغماس فى شهواتهم ولست فى حاجة إلى التدليل - من جديد - على أن مثل هذا الرأى ، عن الصوفية الخالصة ، زائف خاطئ

* * *

والحب - كالمعرفة - هو فى ذاته منحة ربانية ، وليس شيئا ينال - ولو أن الخلق جميعًا أرادوا تحصيل الحب ماستطاعوا ؛ ولو جهدوا غاية الجهد فى صرفه ما وسعهم ذلك . ومحبو الله يحبهم الله قال أبو يزيد « توهمت أنى أذكره وأعرفه ، وأحبه وأطلبه ؛ فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته سبقت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، وطلبه لى أولا حتى طلبته »[١] وقد عرف الجنيد الحب بأنه : « دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب »[٢] وبعبارة أخرى « الحب هو إفناء النفس

= وغير ذلك من معانى مقامات الأنبياء ، وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيبًا . أى محبًا محبوبا » .

ذخائر الأعلاق ص ٤٠ س ١١ - ١٥

(١) حلية الأولياء جـ ١٠ ص ٣٤ س ٦ - ١٠

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨٩ س ٢ ، ٣

الذاتية ، هو السكر الذى لايدلك عليه ؛ هو منة من الله ، تُبتغَى بإخلاص العبادة ، وإدامة الدعاء

أنت يامن قلبى فى مِضْربه المتقن كرة موضوعة
لا تلتوى قيد شعرة من أمره ولا تعصى

* * *

لقد طهرت ظاهرى بما أخرجت وما صببت من ماء
وباطنى ملكك ؛ أفتبتغيه غير طاهر يارب ؟!

* * *

وجلال الدين يقول

إن حب الإنسان ليس إلا نتيجة حب الله ، على سبيل المثال دعا بعض العبّاد ربه جهرة ، فتبدى له الشيطان قائلا « إلى متى تشق حلقك بقولك « الله ، الله » اطمئن ! فلن تجد رجعا لندائك » فأحنى العابد رأسه فى صمت ، فرأى بعد هنيهة الخضر عليه السلام ، يقول له « لم سكت عن دعاء الله ؟ » فقال « لأن « لبيك » لم تأت » فقال الخضر « إن الله أمرنى أن ألقاك ، فأقول لك

ألست أنا الذى للدعاء ناديتك ؟!
ألست أنا بالنداء شغلتك ؟!

* * *

نداؤك « ياألله ! » هو جوابى « لبيك »
وآلامك الرغبة رسولى إليك

* * *

لتلك الدموع ، والصيحات ، والأدعية
كنت الموجه ، وقد وهبتها الأجنحة

* * *

والحب - أسطرلاب الأسرار السماوية - يلهم كل دين جديد بهذا

الاسم ، ولا يصاحب الإيمانَ القائم على العقل ، بل الإيمان العميق ، النابت من الإلهام المباشر وهذا النور الباطن دليله ، فمن يره يحز العلم الصادق ولا شئ يستطيع أن يذهب بيقينه ، أو أن يزيده ومن هنا لايمل الصوفية التعريض بتفاهة كل اعتقاد دعامته الأدلة العقلية ، والقوة الظاهرة ، ومآرب النفس وأهوائها ، أيما كانت فجدل الكلاميين المجدب ، وتقوى المرائين المصطنعة ، يغرسونها فى شعائر ومظاهر والعبادة التى تقل عن هذه اسفافا ، وإن استوت معها فى أنها غير خالصة لله ، وهى العبادة التى تدفع إليها الرغبة فى كسب الجنة فى الآخرة ، ومثلها الانقطاع الذى لم يخلص كله لله ، ينقطعه الصوفى ، فهو - وإن أحب ربه - يفكر فى نفسه على أنه محب ، وليس قلبه خالصا عن الأغيار ، كل هذه الألوان من العبادات حجب لابد أن تزال

ولعل كلمات قلائل ، من هؤلاء الذين عرفوا الحب ، أجدى مما قدمت من إيضاح

١ - تقول رابعة « إلهى ! إن كنت أعبدك مخافة النار فحرقنى فيها ، وإن كنت أعبدك رغبة فى الجنة ، فأبعدنى عنها ، وإن كنت أعبدك لذاتك فلا تصرف عنى جمالك السرمدى »

٢ - ويقول أبو يزيد البسطامى

« أحباب الله ، وإن حال حبهم له بينهم وبينه ، فإن لديهم شيئا أصيلا ، يَطلبون ويُطلَبون نائمين أو مستيقظين لايشغلهم طلبهم ولا حبهم ، ولكنهم سكارى فى تأمل المحبوب ومن الإثم فى حق الحبيب ، أن تنظر فى حبه ومن العسف فى الحب أن تبحث عن طلبك ، وأنت وجهًا لوجه مع المطلوب »

٣ - ويقول

« لقد دخل حبه فغلب حب الأغيار ، ولم يدع لشئ آخر أثرا فبقى واحدا كما أنه هو واحد »

٤ - ويقول الشبلى

« لأن تحس أنك واحد مع الله ، خير من عبادة الناس جميعا ، من بدء

الدنيا إلى غايتها »

٥ - ويقول ذو النون

« خوف النار ، إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب ، كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات »

٦ - ويقول جلال الدين الرومى

مالم أتوجه بقلبى إليك
أعد صلاتى غير جديرة بأن تُعَد صلاة .

* * *

إن جعلت وجهى إلى الكعبة ، فذلك لحبك
ولولاه لانصرفت عن الصلاة ، وعن الكعبة جميعًا

* * *

والحب - أخيرا - إلهام ربانى للروح ، يقهرها على أن تتعرف طبيعتها ، وأن تتعرف ماأوجدت من أجله والروح أسبق موجودات الله جميعا ؛ عاشت وتحركت ، وأضحى لها فيه وجود ، قبل أن يخلق العالم وهى خلال ظهورها الترابى ، غريب فى منفى ، يحن دائما إلى العودة إلى داره

* * *

ما الحب إلا أن تطير إلى السماء صُعُدا
فترفع فى كل لحظة مائة حجاب
واللحظة الأولى التى ترفض فيها الحياة
هى الخطوة الأخيرة ، ثم ترحل طائرا

* * *

اعتبارُ هذا العالم ، كأنه لايقع تحت بصرك
يكون بألا تنظر إلى مايبدو لنفسك

* * *

وقصص الحب جميعًا ، وكذلك مجازات الشعر الصوفى ، من أمثال قصص ليلى ومجنونها ؛ ويوسف وزليخا ؛ وسليمان وبلقيس ؛ والفراشة والقنديل ؛ والعندليب والوردة ؛ هذه القصص ظلال لهيام الروح العنيف فى أن تتحد بربها

وليس فى الطوق أن أقدم للقارئ ، من الكنوز التى حشدها خيال الشرق الدافق ، فى كل قاعة من قاعات هذا القصر المسحور ، أكثر من اللمحة السابقة وذلك لضيق المجال المضروب

وقد تمثل الروح بالحمامة النواحة ، التى فقدت إلفها ؛ وبالقصبة نزعت من مغرسها ، ثم جعلت شَبَّابة ، تملأ أنغامُها الهادئة العين بالدموع ؛ وبالبازى دعاه صفير الصائد ليجثم على معصمه ؛ وبالثلج تذيبه الشمس ، فيصَّاعد بخارا إلى السماء وبالجمل الهائج ، انطلق على وجهه فى الصحراء ليلا وبالببغاء يحتجزها القفص . وبالسمكة على يابس الأرض . وبالجندى البسيط يبتغى أن يكون ملكا وهذه التمثيلات تدل على أن الله عندهم « منزه Transcendent » وأن الروح لا تستطيع الوصول إليه مالم تتخذ مادعاه « أفلوطين Plotionus » فى عبارة بليغة « الفرار من الواحد إلى الواحد » يقول جلال الدين

كل ذرة منجذبة إلى منبعها
وسيصير الإنسان إلى الشئ الذى أكب عليه

* * *

والروح والقلب ، يدافع الشغف والوله
سوف يتخذان صفات « المحبوب » والمحبوب روح الأرواح

* * *

« وسيصير الإنسان إلى الشئ الذى أكب عليه » إلى أىّ شئ يصير الصوفى ؟!

أما « إكارت Ekhart » فى إحدى عظاته . فقد اقتبس قول « القديس

أوغسطين [١] Saint Augustione « الإنسان ماأحب » ثم عقب عليه بقوله « إن هو أحب حجرا فهو حجر وإن هو أحب إنسانا فهو إنسان وإن هو أحب الله - وحسبى فلن أزيد - فلعلى إذا قلت « هو الله » أن ترجمونى »

والصوفية المسلمون قد تمتعوا بنصيب من حرية القول أكثر من إخوانهم المسيحيين ، الذين خضعوا للكنيسة الكاثوليكية فى العصر الوسيط والصوفية إن أبعدوا فى الشطح ، ففى الانجذاب لهم عذر مقبول وسواء عليهم إن هم أكدوا القول بما بطن أو ظهر من وجهى « الاتحاد » ؛ بتنزيه الله أو بطونه فى خليقته ، فإن عباراتهم قوية طليقة هذا أبو سعيد بن أبى الخير يقول

أنت فى قلبى تُقيم سوف أملأه بغير الدم
أنت فى عينى تنير ، سوف أضعها فى غير الدمع

* * *

لا تود روحى إلا أن تتحد بك
وسأسُلُّها من جسدى على وجه من الوجوه

* * *

ويرى جلال الدين الرومى أن حب الروح لله هو حب الله للروح ، وفى حب الله للروح يحب نفسه ، ذلك لأنه يُرجع إلى نفسه مااغترب ، مما هو فى ذاته روحانى

ويقول الشاعر

« لقد تبدل نحاسنا بهذه الكيمياء النادرة »

يعنى أن عنصر النفس المنحط قد تجوهر وتطهر

---

(١) القديس أوغسطين أشهر آباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤ - ٤٢٠ م) مال إلى التدين والتعبد ، بعد شباب طائش . ثم صار لاهوتيا فيلسوفا ، وعالم أخلاق وجدليا وحاول أن يوفق بين المسيحية والأفلاطونية الحديثة وأشهر مؤلفاته « الاعترافات Les ConfessionS » مقال عن الغفران Traite de la Grace » وقد كان أوغسطين أسقف مدينة هيون القديمة ، بالقرب من مدينة بونة فى الجزائر

ويقول فى أنشودة أخرى

* * *

ياروحى ! بحثتك من طرف إلى طرف فما رأيت فيك غير المحبوب
ياروحى ! لا تسمينى مشركا إن قلت أنت هو

* * *

وأكثر من ذلك وضوحًا قوله
أنت يامن عن الله يبحث وله يتعقب
لست بحاجة إلى البحث ، لأن الله أنت ، أنت

* * *

لِمَ تبحث عن شئ لايفقد أبدا ؟
ليس غيرك كائن ، ولكن أين أنت ، أين أنت

* * *

أين يكون المحب حين يتبدى المحبوب ؟ ليس له مكان ، وهو فى كل مكان فنيت عنه شخصيته ، وفى قاعة الجلوة لواحدانية الله يقام حفل زواج الروح المكنون

* * *

الفصل الخامس

الأولياء والكرامات

لنفرض أن مسلما من أوساط الناس يستطيع أن يقرأ الإنجليزية ، وأنا وضعنا بين يديه واحدًا من هذه المجلدات الضخمة ، التى تنشرها « جمعية المباحث النفسية Society for Psychidal Researches » ؛ فلكى نشاركه أحاسيسه فى هذا الوادى ، علينا أن نتخيل شعورنا نحن ، لو أن صديقا عالما دعانا لدراسة بحث يعرض حقيقة « البرق » ، ويسجل أمثلة من الاتصال البرقى ، قد أجيد اختبارها

ولعل المسلم أن يرى فى البرق نوعًا من الأرواح ، عفريت ، أو جنى وهو يسلم « بالتلباثى Telepathy » [1] وأمثاله من الظواهر الخفية على أنها حقائق ثابتة فى نفسها ، ولايقع له أصالة أن يبحثها ، ففى تركيب عقله شئ يمنعه من البحث ، إن هو عرض للرأى القائل بأن الغيبيات قد تكون خاضعة لقانون وهو يعتقد - ولايد له فيما يعتقد - فى حقية عالم مستور ، يقع بين ظهرانينا ، لافى خيالنا وحده ، بل فى كل زمان ومكان ، عالم لا ننفصل عنه بأى سبيل ، وفى الطوق الوصول إليه ، وقد ينكشف فى بعض الأحوال للجميع ، وإن تكن الصلة الخالصة المتمكنة معه ميزة ينعم بها قلة من الناس ، فكثرة مدعوة وقلة مختارة

* * *

الأرواح كل ليلة من أحبولة الجسد ،

---

(١) هذه الكلمة مكونة من أصلين يونانيين من « Tele » ومعناها « بعيد » ، ومن « Pathos » ومعناها « انفعال » وإذا فالمعنى الحرفى للكلمة هو « انفعال من بعيد » ويمكن أن تقابل مقابلة غير تامة بالكلمة الصوفية (الكشف) وهم يطلقون « التلباثى » على « الإحساس الذى يتصل بحادثة واقعة ، يحسه الشخص فى اللحظة التى تقع فيها ، على أن يكون وقوعها فى مكان بعيد ، أو بحيث يكون الإدراك الحسى مستحيلا استحالة مادية

أنت تحررها وتجعلها صحيفة بيضاء (١)

* * *

تطلق الأرواح فى كل مساء من هذا القفص
حرةً لاتحكم أحدا ولا يملكها أحد

* * *

فى الليل ينسى السجناء سجنهم
فى الليل ينسى الملوك بأسهم

* * *

فلا أسى ، ولا احتضان للكسب والخسارة
ولا تفكير فى هذا الشخص ولا ذاك

* * *

وتلك حال العارف حتى ولو كان مستيقظًا
يقول الله ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾
[سورة الكهف الآية ١٨]
إنه راقد ليله ونهاره عن أحوال هذه الدنيا
كالقلم فى يد الله المهيمنة

* * *

والصوفية لا يفتأون يعلنون عن اعتقادهم فى أنفسهم أنهم أمة الله المختارة وقد أشار القرآن ، فى مواضع عـدة منه ، إلى من هم عند الله ﴿ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [سورة ص : الآية ٤٧] . وينسب هذا اللقب - جريا مع صاحب اللمع - إلى الأنبياء أولا ، فهم مختارون لعصمتهم وإلهامهم ورسالتهم وينسب ثانية إلى جماعة خاصة من المسلمين ، وهم مختارون لتقواهم الصادقة ، وإعناتهم أنفسهم الأمّارة بالسوء ، واستمساكهم الشديد بالحقائق الربانية ، وفى اختصار ، هم الأولياء وإذا كان الصوفية هم

---

(١) باستئصال التأثيرات الجسدانية ، التى تقوم حجابًا بين الروح وبين عالم الحقيقة

المختارون بين جماعة المسلمين ، فإن الأولياء هم المختارون بين جماعة الصوفية

والولى المسلم نطلق عليه فى الإنجليزية « Moslem Saint » وجمع الولى أولياء وقد استعملت هذه الكلمة فى معان مختلفة ، مأخوذة من معناها الأصلى « الولى » [١] فاستعملت فى « الصهر ، والحليف ، والمتولى أمرك ، والصديق » وقد نسبت فى القرآن إلى الله تعالى على أنه ﴿ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٥٧] ، وإلى الملائكة ، والآلهة يتخذونها من الأوثان ، ثم يظنون أن هؤلاء أو أولئك يغنون عنهم شيئًا ، وإلى قوم اعتبروا خاصة تحت عين العناية الربانية [٢]

وقد عاتب محمد اليهود [٣] على دعواهم أنهم أولياء الله والكلمة ، رغم ملابساتها الغامضة ، قد اصطنعها الصوفية ، وأضحت علما شائعا على فريق أدنتهم رابانيتُهم من الله ؛ وتلقوا من ربهم خاص رضوانه ؛ وأعنى بها الكرامات فهم الذين ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ؛ والسوء يراد بهم من أحد من البشر ايذان لله بالحرب [٤] وإلهام الأولياء ، وإن فرق فى اللفظ بينه وبين إلهام الأنبياء ، وكان دونه فى الدرجة ، إلا أنهما من واد واحد يرفع الحجاب الذى كان يغشى ماوراء الطبيعة – أو كما يقول المسلمون « عالم الغيب » – ويحول بين بصائرهم وبينه بسبب صدق حالهم

---

(١) انظر لسان العرب فى مادة « ولى »

(٢) يقول الله تعـــالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة يونس الآية ٦٢]

(٣) يقول الله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [سورة المائدة الآية ١٨]

(٤) عن عائشة رضى الله عنها ، قالت ، قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى وماتقرب إلى العبد بمثل أداءماافترضت عليه ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل ، حتى أحبه وما ترددت فى شئ أنا فاعله ، كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن ، لأنه يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه)

الرسالة القشيرية ص ١٥٢ س ٣٨ – ٣١

مع الله ولا يصير المسلم وليا لفقهه مسائل الدين ، ولا لإكبابه على صالح الأعمال ، ولا لزهادته فى الدنيا ، ولا لطهارة خلقه . وقد يكون له ذلك كله ، وقد لايكون له شئ منه ، ولكن الذى لابد منه هو السكر والجذب ، فتلك علامة ظاهرة على الفناء عن النفس الترابية . ومن كان مجذوبا فهو ولى . فإذا عرف هؤلاء الناس بفعل الكرامات عظموا على أنهم أولياء ، لابعد مماتهم فحسب ولكن أثناء حياتهم كذلك وكثيرا ماعاشوا وماتوا مغمورين لا يعرفهم إلا قلة من الناس ويحدثنا الهجويرى أن بين الأولياء أربعة آلاف مستورين ، لايعرف بعضهم بعضا ، ولا يعرفون فضل حالهم وهم فى كل حال مستورون عن أنفسهم وعن كافة الناس

وللأولياء « حكومة باطن » يرون أن عليها يتوقف نظام العالم ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى « القطب » وهو أرفع صوفية عصره ، وإليه رآسة الاجتماعات ، التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقر وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان ، وإنما يأتون من أرجاء الأرض فى لمحة طرف يعبرون البحار والجبال والصحارى ، فى يسر بالغ ؛ كما يسير عوام البشر فى السبيل الممهد ودون القطب تقوم طبقات ودرجات مختلفة من الأولياء وقد عدها الهجويرى ، فى ترتيب تصاعدى كما يلى الأخيار الثلاثمائة ، فالأبدال الأربعين ، فالأبرار السبعة ، فالأوتاد الأربعة ، فالنقباء الثلاثة وهؤلاء جميعا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعمل الواحد منهم إلا برضى الباقين وعمل الأوتاد الطواف حول الأرض جميعا كل ليلة ، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه بدت فيه فى اليوم الثانى شائبة نقص ؛ فيخبرون القطب ، حتى يجعل همه إلى ذلك المكان المشوب ، فيبرأ مما أصابه بفضل القطب

ونحن ندرس فى هذا الكتاب الحياة الصوفية للفرد المسلم ولابد لنا أن نقصر الموضوع على أضيق الحدود ووددت من وجه آخر لو أننى استطعت دراسة التكوين الخارجي والتاريخى للصوفية دراسة فاحصة ، من حيث إنها مدرسة للأولياء ؛ وأن أصف طريقة التطور ، التى يبدأ الولى فيها بالحديث إلى

طائفة من خاصته ؛ يصير فيها أولا أستاذهم وقائدهم الروحى ، فيجمع المريدين حوله خلال حياته ؛ ثم يصير رأس جماعة دينية دائمة تحمل اسمه فى النهاية وأقدم هذه الجماعات العظيمة ، التى تؤاخى الناس فى الله ، يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر . وتضم كل طائفة من هذه الطوائف إلى جانب خاصة رجالها – الذين يقال لهم الدراويش – عدد كبيرا من عوام الإخوان ، وبذلك ينتظم تأثيرها مختلف طبقات الجماعة الإسلامية وهم أحرار ، يعملون من أنفسهم على الرقى بأنفسهم ، ويقوم بينهم سباق ، ولكن لا يتسود واحد منهم على البقية ، ولكل وجهته الخاصة فى العقيدة والعمل ، لايحدها شئ غير الروح العامة للإسلام وإنه وإن أمكن للمذاهب الغريبة ، والنقائص الخلقية ، أن تنمو فى يسر ، لايكترث لخطرها أحد ، فإن الحرية قد سلمت وغنمت [١]

والولى المثالى لايستطيع – طبعا – أن يوجد جماعة دينية ولكن الإسلام مع ذلك قد أنتج رجالا خلطوا – على وجه واسع – بين الإشراق الروحى القوى ، وبين الحيوية الخالقة ، والمقدرة على ممارسة شئون الحياة ؛ لايقل شأنه فى ذلك عن شأن المسيحية والرأى الإسلامى فى الولى من أنه شخص استأثر الله به [٢] ، لايحول دون تطبيق بالغ الاتساع لهذا الاصطلاح ، وهو فى الاستعمال العام يشمل أعظم الصوفية الثيوصوفيين ، من أمثال جلال الدين الرومى ، وابن عربى ؛ كما يشمل هؤلاء الذين لم يُقَل عنهم إنهم أولياء إلا لفقدهم عقولهم ، كضحايا الصرع واضطراب الأعصاب ، والمعتوهين من أنصاف المجانين ، والمجانين الذين لا يؤذون أحدا .

---

(١) Macdonald: The riligious Attitude and Life in Islam P. 164

(٢) يقول القشيرى « الولى له معنيان « فعيل » بمعنى « مفعول » وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالى ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته . والثانى « فعيل » ، مبالغة من « الفاعل » ، وهو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى ، من غير أن يتخللها عصيان وكلا الوصفين واجب ، حتى يكون الولى وليا يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء

الرسالة القشيرية ص ١٥٢ س ١ – ٥

والقشيرى [١] ، ومثله الهجويرى ، قد درس مسألة إدراك الولى لولايته ، وهل فى طوقه ذلك ، ثم أجاب عليها بالإيجاب ورد معارضوه بأن معرفة الولى أنه ولى تستلزم الاستيثاق من النجاة ، وهو أمر غير ممكن ، حيث لا يستطيع أحد أن يتأكد أنه سوف يكون بين الناجين يوم القيامة ورُدَّ على ذلك بأنه يجوز أن يعلم الولى أن نجاته المقدرة كرامة له ، ثم يحفظ عليه صفاءه الروحى ، ويحجزه عن المعصية وليس الولى معصوما كالأنبياء ، ولكن العناية الإلهية التى يحظى بها ضمان من أن يسلك السبل الآثمة ، وإن أمكن أن يضل فى بعض الأحيان وتتوقف الولاية على الإيمان ، لا على السلوك ، جريا مع الرأى الغالب ومن أجل ذلك لايذهب بها إثم من الآثام غير الكفر بالله وهذه النظرية الخطرة ، التى تفتح الباب للإباحية ، قد هُذبت بالتشديد فى السير على نهج الشريعة وهذه إحدى ذكريات أبى يزيد البسطامى ، تعرض الوضع الواجب لجميع كبار الصوفية ، الذين تعتبر أقوالهم حجة ، فى جميع الكتب الإسلامية الهامة قال أبو يزيد « قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل ، الذى قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلا مقصودًا مشهورا بالزهد فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقة تُجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ، ولم يسلم عليه ، وقال هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ . فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟! » [٢]

وكثيرون من الأولياء يرون فى الشريعة ، حدا يجب التزامه ، مادام المرء سالكا سبيل المريدين ، فأما إذا صار وليا فيجوز له أن يتخطاه وهم يصرون على أن هذا الإنسان قد وصل إلى مرتبة أعلى من مرتبة عوام الناس ؛ ولايجوز أن يرمى بالزيغ لأعمال تبدو فى ظاهرها مخالفة للدين وإذا أصر متقدمو

---

(١) يقول القشيرى « اختلفوا فى أن الولى هل يجوز أن يعلم أنه ولى أم لا فمنهم من قال لايجوز ذلك وقال إن الولى يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شئ من الكرامات خاف أن يكون مكرًا »

الرسالة القشيرية ص ١٥٣ س ١٠ - ١٤

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨ س ٢ - ٧

الصوفية على أن الولى الذى يتعدى حدود الله ، يدلل بذلك على افتعاله الولاية ؛ فإن الاعتقاد العام فى الأولياء ، والنمو السريع لعبادتهم ، يميل إلى تعظيم الولى على حساب الشريعة ، وإلى تغذية الاعتقاد بأن الرجل الذى ترعاه عين العناية الربانية ، لا يستطيع أن يقارف المآثم ، أو لايجوز الحكم على أعماله بظاهرها على الأقل

والمثال المشهور عن هذا « الحق الإلهى Jus Divinum » الذى يحظى به أحباب الله ، هو قصة موسى والخضر ، التى قصها القرآن [1] والخضر – ولم يذكر القرآن اسمه – رجل فطن غامض ، قد وهب البقاء أبد الحياة ، يقال عنه إنه يتحدث إلى رحالة الصوفية ، فيأخذون عنه علمه اللدنى وقد رغب موسى أن يصاحبه فى رحلة حتى ينتفع بعلمه ، فقبل الخضر على ألاّ يبدأه موسى بالسؤال ، ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [سورة الكهف الآيات ٧٠ – ٧٤] فلما نقض موسى عهده بالتزام الصمت مرة ثالثة ، عزم الخضر على فراقه ؛ وقال ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [سورة الكهف الآيات ٧٨ – ٨٠]

والصوفية مولعون باقتباس تلك الحجة التى لا ترد ، واتخاذها دليلا على أن الولى يعلو على النقد البشرى ، وأن يده – كما يؤكد جلال الدين – مثل يد الله سواء بسواء وأكثر المسلمين يرون صحة هذه الدعوى كما يتحاشون تطبيق المقاييس المتواضع عليها فى الأخلاق على الأولياء وقد بينت صحتها من الوجهة الغيبية (الميتافيزيقية) فى فصل سابق

ومايقع من الولى يسمى (كرامة) أى فضل يسبغه الله عليه فأما مايقع

---

(١) سورة الكهف الآيات ٦٠ – ٨٢

من النبى فيدعى (معجزة) أى عمل لا يستطيع أحد من كافة البشر ، غير النبى ، أن يأتى بمثله ولقد تأصلت التفرقة بين المعجزة والكرامة فى « الجدليات وعلم الكلام » ؛ واتخذت ذريعة للرد على الذين يرون فى نسب قوى خارقة للأولياء افْتِيَاتًا على منزلة الرسل

والمعتذرون من الصوفية ؛ وإن اعترفوا أن الكرامة والمعجزة متماثلتان فى الجوهر ، قد لاقوا المتاعب فى التمييز [١] بين خصائص كل وقد أعلنوا فوق ذلك أن الأولياء شهود الأنبياء وأن جميع كراماتهم مثل « قطرة من ظرف امتلأ عسلًا » [٢] وأن هذه الكرامات مستمدة فى الحقيقة منهم وهذا هو الرأى السنى . وقد أخذ به الصوفية المسلمون ، الذين اعترفوا بالشريعة اعترافهم بالحقيقة . وإن لم يزد بعض الأحوال - إلا قليلا - على أن يكون رأيا متورعا وكثيرا ماأدركنا العنت ، الذى وجده الصوفية ، حين حاولوا توفيقا منطقيا مع الإسلام بيد أن كلمة « منطق » غرارة فى هذه الناحية

وفجر التبصر ، عند الباحثين فى الأديان الشرقية من الأوربيين ، يبدا حين أدركوا استقرار هذه العقائد المتنافرة ، آمنة مجتمعة ، فى الذهن الشرقى ، وأن صاحبها لايدرك أصالة مابينها من تنافر ، وهو لذلك صادق الإيمان بها وحين أقول إنها عقائد متنافرة ، أعنى طبعا أنها عقائد لا تستطيع عقولنا أن تؤلف بينها والمتناقضات التى تتراءى ملعلعة لأعيننا لاتضايقه أصالة وعنصر الخوارق فى الصوفية الباكرة لم يبلغ من الأهمية ما بلغه بعد فى عبادة الأولياء ، التى بلغت أشدها فى قيام « طرق الدراويش » يقول القشيرى

« ظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله » [٣] ويغلب أن تلقى فى حياة الصدر الأول أقوالا تحط من قدر الخوارق بل ترى فى

---

(١) انظر الفصل القيم الذى عقده القشيرى فى رسالته تحت عنوان (كرامات الأولياء) .
الرسالة القشيرية ص ٢٠٦ - ٢٢٨

(٢) قال أبو يزيد البسطامى « مثل ماحصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل ، ترشح منه قطرة فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء ، وما فى الظرف مثل ما لنبينا ﷺ »
الرسالة القشيرية ص ٢٠٧ س ٣٠ - ٣١

(٣) الرسالة القشيرية ص ٧٠٦

الخوارق شيئا تافها قليل الأهمية . وقد قال سهل بن عبد الله : « أكبر الكرامات أن تبدل خُلُقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخُلُقٍ محمود »[١] . وذكر كتاب اللمع كثيرا من الأولياء الذين كانوا يكرهون الكرامات ، ويرونها ابتلاء من الله . قال أبو يزيد البسطامي « كان في بدايتي ، يريني الحق الآيات والكرامات ، فلا ألتفت إليها فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلا »[٢]

ويرى الجنيد أن الاتكال على الكرامات أحد الحُجُب ، التي تمنع المختار من النفاذ إلى صومعة الحق المحجبة ولقد كان ذلك مذهبا يعلو على أفهام عوام الناس ، وتأتي دونه أفكار الغالبية الساحقة من المسلمين ؛ فكانت الغلبة أخيرا لفكرة العوام في الولاية ، على الفكرة الثيوصوفية الصوفية . وهذه التحذيرات والتنبيهات قد جرفها ذلك الميل لعبادة الأولياء ، وهو ميل عارم لايقاوم ، ميل ألغى كل توكيدات محمد الجليلة ، في أنه ليس صاحب مخارق وخوارق ؛ وصير النبي البشرى ، الذي يعرفه التاريخ ، صانع معجزات والرغبة العامة في الكرامات قد بالغت في توسيع موردها وتعميمه ، فإذا فشل الأولياء فإن الخيال الخصب الطَّوْع يخف لنجدتهم ، ويصورهم على النحو الذي يجب أن يكونوا عليه ، لا على النحو الذي هم عليه وبتوالي السنين تعاظم أمر الأقاصيص ، وزادت غرابتها ، بالجديد تستمده من محيط الخيال الشرقي ، ذلك الخيال الذي لاتدرك أغواره وما تظاهر به الأولياء أنفسهم ، أو نسج حولهم ، اضطردت زيادته ، وما روى عنهم من الأقاصيص صار أمعن في الخيال والمبالغة وسأقصر البقية الباقية من هذا الفصل على صورة الولي ، كما يظهر فيما خلفه الأدب الضخم ، في العصر الوسيط عن الموضوع

لايقول الولي المسلم ، إنه أتى بالكرامة من عنده ، ولكنه يقول « إني قد منحت كرامة ، أو ظهرت على يدى كرامة » وقد يكون مدركا أتم

---

(١) ذكر عند سهل بن عبد الله رحمه الله الكرامات ، فقال « وما الآيات ؟! وما الكرامات ؟! شئ ينقضي لوقته ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقًا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود »

اللمع ص ٢٣٤

(٢) اللمع ص ٣٢٤

الإدراك حين تظهر الكرامة على يده ، كما يذهب إلى ذلك البعض ، ولكن أكثر الصوفية على أن هذا الظهور لايقع فى الصحو بل فى السكر ، حين يكون الولى أصالة فى القبضة الربانية ، فشخصيته حينئذ فى غيبوبة ، ومن يعارضه يعارض القدرة الربانية تنطق بلسانه ، وتبطش بقبضته ويروى جلال الدين ، عن أبى يزيد البسطامى ، الولى الفارسى المشهور ، أنه كثيرا ماقال فى جذبته إنه هو الله ، وحين يرجع إلى نفسه ، ويعلم مانطق به لسانه من ألفاظ الكفر ، يأمر مريديه أن يَنْخَسوه بِمُدَاهُم إن هو عاد إلى ارتكاب ذلك المأثم ويضرب جلال الدين لذلك مثلا ، هو كالسلاح ذى الحدين ، رجلا أصابه مسّ من الجن ودعنى أعرض على عينيك المقطوعة التالية ، أقتبسها عن ترجمة « هو ينفيلد Whinfield » لبعض مقطّعات « المثنوى »

غطى سيل الجنون على عقله
فتفوّه بألفاظ أمعن فى الضلال من التى تقدمتها

* * *

قال ما فى جُبتى غير الله
سواء طلبتموه فى الأرض أم فى السماء

* * *

فَجُنّ جنون مُريديه من الفزع
ومالوا على جسده المقدس بِمُدَاهم

* * *

وكل واحد ممن قصدوا جسد الشيخ
ارتدت إليه طعنته فجرحته
ولم تصب ضربة واحدة ذلك الرجل ذا المواهب اللدنية
أما المُريدون فقد جُرِحوا ، وغَرِقوا فى سيل من الدماء

* * *

وهنا يصل الشاعر إلى غايته حين يقول
أنتم ، أيها الذين يطعنون بأسيافهم من رقى بنفسه

احذروا فإنكم تطعنون أنفسكم

* * *

لأن من رقى بنفسه فقد فنى ونجا
نعم قد أقام فى طمأنينة دائمة

* * *

لقد تلاشى شخصه وليس إلا مرآة
لا يُرى فيها شئ غير انعكاس صورة الغير

* * *

إن أنت بصقتَ عليها بصقتَ على وجهك
وإن أنت طعنتها طعنتَ نفسك
وإن رأيتَ فيها وجهًا دميمًا فهو وجهك أنت
وإن رأيتَ فيها عيسى فأنت مريمه

* * *

وليس هو شيئا من ذلك ؛ لقد تخلى عن الهيئة
إنها هيئتك أنت ، التى ترتد منعكسة إليك

* * *

وحياة أبى الحسن الخَرَقانى ؛ وأبو الحسن صوفى فارسى آخر ، قضى نحبه عام (٤٢٥ هـ - ١٠٣٣ م) تعطينا صورة كاملة للاتحادى الشرقى ، وتكشف عن العظمة ، ممتزجة بسمو الخلق ، فى وضوح وجلاء ، كما يحب الإنسان والنص الأصل يستغرق خمسين صحيفة ، ولذا فأنى سأنقل جزءا صغيرا منها هاهنا :

قال الشيخ مرة لقد جرح قُطّاعُ الطرق الليلةَ خَلْقًا كثيرا - وعيّن عددهم - فى مفازة كذا ؛ فلما سألوا عن ذلك ، وجدوا خبر الشيخ صادقا غاية الصدق ومن العجب أن تُقطع فى الليلة عينها رأس ولده ، وتوضع على عتبة داره ولا يدرى من أمرها شيئا قالوا فصاحت امرأته - وكانت لاتعتقد فيه - قائلة « ما تظنون برجل يحدِّث بأشياء تقع على بُعد فراسخ

عدة ، ولا يدرى مع ذلك أن رأس ولده قد قُطعت وأُلقيت على بابه ! » فقال الشيخ « نعم ! حين رأيت ذلك ، كان الحِجَاب قد كُشِفَ عنى فأما حين قُتل ولدى فقد أرسل على ثانية »

وجمع أبو الحسن الخرقانى قبضته ذات يوم ؛ ثم أطلق خنصره وقال : « هاهنا القبلة لمن شاء أن يكون صوفيا » ، فلما نقل ذلك إلى الشيخ الأكبر ، الذى كان يرى فى وجود القبلتين معًا افتئات على الوحدانية الربانية ، صاح « سأدع القبلة الأولى إلى الثانية ، مادامت قد ظهرت » فلم يستطع بعد ذلك حاج أن يصل مكة ؛ فمن هَلْكَى فى الطريق ، إلى آخرين قد سقطوا فى أيدى اللصوص ، أو مُنعوا بغير ذلك من الأسباب من تأدية حجهم فلما كان العام القابل ، قال أحد الدراويش للشيخ الأكبر « أى معنى فى منع الناس من بيت الله ؟! » فعندئذ أشار الشيخ إشارة ، سُلِك بعدها الطريقُ فقال الدرويش « على من يقع إثم قتل هؤلاء الذين قتلوا ؟ » فأجاب الشيخ « إذا اصطرعت الفيلة فمن يهتم ببضعة من مساكين الطير أن تداس فتقتل ؟! »

وسأل بعض الناس – وكانوا على رحلة – أبا الحسن الخرقانى ، أن يعلمهم دعاء يحفظهم من مخاوف الطريق فقال لهم « إن أصابكم سوء فى الطريق ، فاذكروا اسمى » فلم يرقهم ذلك ثم فصلوا ، فلما كانوا فى رحلتهم ، خرج عليهم قطاع الطريق فذكر رجل منهم اسم الشيخ فاختفى توًا عن الأعين ، فركب القطاعَ الدهشة إذا لم يروا أثرا لبعيره ولا لبضاعته ، أما الباقون ففقدوا بضاعتهم وثيابهم فلما رجعوا إلى أهليهم ، سألوا الشيخ أن يبين لهم هذا السر وقالوا « لقد دعونا الله فلم يستجب دعاءنا ، ودعاك رجل فاختفى عن أعين السرقة » قال الشيخ « أما أنتم فقد دعوتم الله صورة ، ودعوته أنا حقيقة فلو دعوتمونى ، فدعوت الله لكم ، لتقبل الله دعاءكم وليس وراء دعائكم نجح مادام صورة ولفظا ، لاتفقهون معناه »

* * *

وبينا هو يصلى ذات ليلة إذ سمع صوتا يصيح « ياأبا الحسن ! أتحب أن أخبر الناس خبر ماأعلم عنك ، حتى يقضوا عليك رجما بالحجارة ؟ » فأجابه بقوله « إلهى وسيدى ! أتحب أن أخبر الناس خبر ماأعلم عن رحمتك ، وما أدرك من فضلك ، حتى لايركع لك راكع فى صلاة ؟ » فقال

الصوت « احفظ عليك سرك ، وسأحفظ على سرى »

قال الشيخ « يارب لا ترسل إلىّ ملك الموت ، فلن أسلمه روحي وكيف أسلمها إلى من لم آخذها منه ؟ عنك أخذت روحى ولن أسلمها لأحد إلا إليك »

* * *

وقال : « سيأتى ملك الموت ، بعد أن أنتقل ، ليقبض روح أحد أبنائى ، وسوف يشتد به ، فأمد يدى من تحت أطباق الثرى ، وأنزل رحمة الله على شفتيه »

* * *

وقال « لو أمرت السماء أن تتحرك لأطاعت ، ولو أمرت الشمس أن تقف لوقفت عن الجرى فى فلكها »

* * *

وقال « لست راهبا ، ولا زاهدا ، ولست متكلما ، ولا صوفيا . يارب ! أنت واحد ، وأنا فى أحديتك واحد »

* * *

وقال « جمجمتى السموات ، وأقدامى تحت الأرض ، وكلتا يدى شرق وغرب »

* * *

وقال « من لم يصدق أننى سأبعث يوم النشور ، ولن يدخل الجنة إلا من أقوده إليها ، فلا يأت إلينا مسلما . ومنذ أخرجنى الله عن نفسى ، والجنة تطلبنى والنار ترهبنى ولو أن الجنة والنار مرتا حيث أكون ، لفنيتا جميعا فىَّ ، بما تحويان من أناس »

* * *

وقال « كنت مستلقيا على ظهرى نائمًا ، فانبثق من ركن عرش الرحمن

شئ انصب فى فمى ، أحسست حلاوته فى باطنى »

* * *

وقال لو أن قطرات قلائل مما تحت بشرة الولى خرجت على شفتيه لفزعت خلائق السموات والأرض »

* * *

وقال : « لو أراد الأولياء لمنعوا بدعائهم السمك عن الانطلاق فى البحر ، ولجعلوا الأرض تضطرب حتى يقول الناس إنه لزلزال »

* * *

وقال « لو انكشف حـــب الله عن قلوب أحبـــائه ، لملأ الأرض طوفانا ونارا »

* * *

وقال « من عاش مع ربه رأى كل مايرى ، وسمع كل مايسمع ، وعقل كل مايعقل ، وعرف كل مايعرف »

* * *

وقال « فىَّ لكل شئ مكان إلا مكان لنفسى »

* * *

وقال « الكرامات أول مراحل ألف فى الطريق إلى الله »

* * *

وقال « لا تطلبه حتى يطلبـــك فإنك حين تجد من يطلبك تكون أنت هو »

* * *

وقال « لابد لك أن تموت وتحيا كل يوم ألف مرة ، حتى تناول الحياة الخالدة »

* * *

وقال « حين تعطى الله شيئك يعطيك الله شيئه »

ولعله أن يكون عملا لا ينتهى إن نحن عمدنا إلى تعداد الأنواع المتباينة للكرامات ، وإلى سوق الأمثلة عليها ، تلك الكرامات التى تروى عن حياة الأولياء المسلمين ؛ من مثل السير على الماء ، والطيران فى الهواء – مع راحلة أودونها – وإنزال المطر ، والظهور فى مواضع مختلفة فى آن واحد ؛ وإبراء المرضى بالنَّفْث ، وإحياء الموتى ، والعلم بما سيقع ، والإخبار عنه قبل وقوعه ، والإخبار عما فى نفوس الغير ، وتحريك الأجسام دون واسطة ، وإصابة العاصى بالفالج ، أو قطع رأسه بكلمة أو إشارة ، ومخاطبة الحيوان والنبات ، وجعل التراب تبرًا ، أو أحجارا كريمة ، وتفجير الماء ، والإتيان بالغذاء ، حيث لا غذاء ، وهلم جرًا

وهذه « الخوارق للعادة » – كما يسميها المسلم – تبدو عنده صحيحة غير منكورة ، فليس لدى المسلم فكرة ما عن القانون الطبيعى ونحن نشعر أننا ملزمون أن نميز الظواهر المستحيلة ، التى لاتعقل ، من تلك التى نستطيع ان نجد لها نوعًا من التأويل الطبيعى والآراء الحديثة عن التأثير العضوى « الفيزيقى » والشفاء بالدعاء ، والتلباثى ، والفراسة الصادقة ، والتنويم المغناطيسى ، وما أشبه ذلك ، قد فتحت لنا طريقًا واسعًا ، نتقدم منه إلى هذه « القارة المظلمة » فى العقل الشرقى ، ولن أتعقب الموضوع أكثر مما تعقبت ، وإن كان مليئًا بما يسر ويستثير

واستطاعة الأولياء الإتيان بالكرامات تحل منزلة ثانوية ، أو دون الثانوية ، فى التعاليم الصوفية الراقية والأهمية البالغة التى اتخذتها هذه الفكرة ، فى تصوف « جماعات الدراويش » وطرقهم ، ذلك التصوف ذو الفروض والرسوم والأشكال ، كانت علامة من أظهر العلامات على فساد أحوالها

والكلمة التالية – وقد غيّرت فيها تغييرًا طفيفًا – تعطينا تلخيصا وافيًا عن الطريقة الجذبية ، التى يصل الدرويش بها إلى الاتحاد بالله

لابد للمريد عند الصوفية ، أن يكون دائمًا على ذكر لمرشده ، وهو موجهه الروحى ، وأن يستغرق عقله فيه ، بالتأمل والتفكير فيه دون انقطاع ولابد للمرشد أن يكون درعه الواقى ، من جميع خطرات الإثم وروح المرشد تقتفيه فى كل جهد يحاوله ، وتصحبه حيثما حل ، كالملك

الحافظ [١] . يأخذ المريد نفسه بذلك حتى يرى الشيخ في كل إنسان وفى كل شئ ويصبح حاله حال الشئ يجذبه المغناطيس وتسمى هذه حال « فناء النفس فى الشيخ » . ويرى الشيخُ فى مرآه الصادقة ، الدرجة التى وصل إليها المريد ، ويعلم إن كانت روح المريد قد امتزجت بروحه أم لا

فإذا بلغ هذه المرتبة ، رقاه الشيخ إلى مرتبة التأثر الروحى « بالبير » - وهو مؤسس الطريقة وأعلى فرد فيها - ولا يستطيع المريد أن يرى « البير » إلا بمعونة الشيخ وتسمى هذه حال « فناء النفس فى البير » . وقد أصبح بذلك جزءًا لا ينفصل من « البير » ، يملك كل مايملك « البير » من قدر روحية

وتصل به المرتبة الثالثة - بمعاونة الشيخ أيضًا - إلى النبى نفسه ، فيراه كذلك فى كل شئ وتسمى هذه حال « فناء النفس فى النبى »

وتصل به المرتبة الرابعة إلى الله فيتحد بالله ويراه فى كل شئ » [٢]

والصورة الدقيقة الرائعة ، لهذه الطريقة التى وصفنا ، موجودة فى قصة حياة « توكل بك » وهى مشهورة معروفة وقد مر خلال هذه الرياضات جميعًا تحت إشراف « مُولّاشاه » وقصته أطول من أن تذكر بتمامها وفوق ذلك فقد ترجمها الأستاذ « ماكدونالد Macdonald» فى كتاب « الحياة والوضع الدينى في الإسلام» وأنا أقدم من هذه الترجمة فذلكة واحدة ، تصف المرحلة الأولى من المراحل الأربع التى ذكرناها آنفًا

« فأجلسنى أمامه ، وكأن حواسى سكرى . ثم أمرنى أن أستحضر هيئتى فى نفسى وبعد أن عصبت عينى ، سألنى أن أجعل ذهنى كله منصرفًا إلى قلبى فأطعته ؛ فانفتح قلبى بعد لحظة ، بفضل الله وبمعاونة الشيخ الروحية . رأيت حينئذ فى باطنى شيئًا مقلــوبًا كأنه الكأس فلمـــا اعتدل امتلأ باطنى سعادة لا تتناهى . وقلت للشيخ « هذه الصومعة ، حيث أجلس

---

(١) روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا ، يذبون عنه كمـــا يذب عن قصعة العســـل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين »

الزمخشرى الكشاف فى تفسير قوله تعالى ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [سورة الطارق آية ٤]

(٢) Brown: The Dervishes, or, Oriental Spiritualism P,298

أمامك الساعة ، أراها ابتعثت ابتعاثًا صادقًا جديدًا فى باطنى وكأن « توكل بك » غيرى يجلس أمام مُولاً شاه غيرك » قال الشيخ « خيرًا ! الصورة الأولى ، التى انكشفت لك هى صورة الشيخ » . ثم أمرنى أن أكشف عينى . فرأيته بباصرتى جالسًا أمامى ثم أمرنى أن أعصبهما ثانية ، فأدركته ببصيرتى ، جالسًا أمامى ، كحاله بباصرتى فملأنى العجب والاستغراب . وصِحْت به « أيها الشيخ ! سواء علىَّ أنظرتُ بباصرتى ، أم نظرتُ ببصيرتى فأنت الذى أراه دائمًا »

وهذا حادث من قبيل « التنويم المغناطيسى الذاتى Autohypnotism » شهدها ورآها « الجامى » الشاعر قال

اعتاد مولانا سعد الدين الكشغرى ، بعد قليل من « التوجه Concentration of thought » أن يظهر أمارات تدل على عدم الإدراك ، ومن جهل حاله ظنه غارقًا فى نومه ، فلما كان أول عهدى برفقته ، حدث أن جلست أمامه فى المسجد الجامع ، فلما أتته غيبوبته ، كما تعود ، ظننت أنه سينام ، وقلت له إن أحببت أن تستريح حينًا فعلت » فضحك ، وقـــال « إنك لاتعرف أن ذلك شئ غير النوم »

والقصة التالية تواجهنا بمشاكل أعظم مما فى غيرها

حدث مولانا نظام الدين الخاموش ، أن شيخه علاء الدين العطار أراد يوما أن يزور الولى العظيم محمد بن على [١] الحكيم فى ترمذ قال نظام الدين « فلم أصحبه ، وبقيت بين أهلى ، ولكنى أفلحت بتوجهى إلى الولى العظيم ، وقصر فكرى عليه ، أن أستحضر ذاته الروحانية أمامى ، حتى أن شيخى حين وصل إلى المقام وجده خاليا ، ولابد أنه قد أدرك ذلك ، فإنه حين رجع . جهد جهده أن يجذبنى تحت سيطرته . فتوجهت وبذلت الجهد لأخلص منه ولكنى كنت كالحمامة والشيخ كالبازى ، يطاردنى فحيثما توجهت كان من ورائى دائما ، فلما أعيتنى النجاة آخر الأمر ، احتميت

---

(١) أبو عبد الله محمد بن على الترمذى لقى أبا تراب النخشبى ، وصحب يحيى الجلاء ، وأحمد بن خضرويه ، وهو من كبار مشايخ خراسان ، له تصانيف مشهورة

توجهت كان من ورائى دائما ، فلما أعيتنى النجاة آخر الأمر ، احتميت بالذات النورانية للنبى ﷺ وانحجبت فى لألائها الذى لا يبلغ له آخر ؛ فلم يستطع الشيخ حينئذ أن يوقعنى تحت سيطرته بعد ذلك ، ووقع فى كرب ولم يعلم أحد سواى سبب ذلك

ويملك ابن علاء ، الشيخ « خواجه » حسن العطار قوة السيطرة هذه ؛ حتى ليستطيع أن يقذف الشيخ بالشخص فى حال الغيبوبة ، ويروضه على الفناء ، تلك المرتبة التى لايصل إليها بعض الصوفية إلا فى مناسبات نادرة ، وبعد إعنات طويل للنفس وقد روى أن المريدين والزوار ، الذين نالوا شرف تقبيل يده ، كانوا دائما يقعون إلى الأرض مغشيا عليهم

وقد اعتقدوا فى بعض الأولياء القدرة على التشكل بالشكل الذى يريدونه . وأظهر هؤلاء « أبو عبد الله الموصلى » المشهور بقضيب البان قالوا : وكان قاضى الموصل يرى فيه زنديقا يستحق العقوبة فرآه ذات يوم فى أحد طرق المدينة ، يواجهه مقبلا صوبه ، فعزم على أن يقبض عليه ، ويرفع أمره إلى الوالى ليعاقبه . وبينما هو فى ذلك ، إذا بقضيب البان قد اتخذ هيئة الأكراد ، فلما اقترب منه قليلا اتخذ هيئة أعراب البادية ، فلما اشتد قربه ، اتخذ هيئة شيخ من المتكلمين ، وصاح به « أيها القاضى ! علام تريـــد أن تجر قضيب البان إلى الحـــاكم وتعاقبه ؟! فندم القاضى على عداوته للولى ، وصار واحدا من مريديه

ودعنى أسوق لك فى النهاية مثالين مؤكدين ، عن طاعة الجمادات ، وتحريك الأجسام دون واسطة « Telekinisis »

حكى عن أبى جعفر الأعور قال « كنت عند ذى النون المصرى ؛ فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء فقال ذو النون « من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ، ثم يرجع إلى مكانه ، فيفعل » قال « فدار السرير فى أربع زوايا البيت ، وعاد إلى مكانه » وكان هناك شاب فأخذ يبكى حتى مات فى الوقت » [1]

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢١٧ س ٢٣ - ٢٧

وزار ابن سينا أبا الحسن الخرقانى ؛ فقام بينهما نقاش طويل عنيف ، وبعد حين أحس الولى - أبو الحسن الخرقانى - التعب ، وكان رجلا أميا ، فنهض وقال لابن سينا اعذرنى ! فلابد لى أن أذهب فأصلح سور الحديقة » وخرج يحمل معه فأسا فلم يكد يرقى الحائط حتى سقطت فجرى ابن سينا ليلتقطها ، ولكن قبل أن يصل إليها ارتفعت الفأس بنفسها ، ورجعت إلى يد الشيخ فملك العجب على ابن سينا نفسه ، وأفقده زمام أمرها وظل على الاعتقاد المتين فى الصوفية ، الذى تملكه منذ ذلك الحين ، حتى هجر - فى آخر أيامه - الصوفية إلى الفلسفة

وإنى لعلى يقين أن هذا الفصل لم يوف ذلك الموضوع العظيم حقه الذى يجب له ولابد لمؤرخ الصوفية أن يعترف - وإن شق عليه ذلك - بالمكان الملحوظ الذى يحتله مذهب « الولاية » ، والتأثير العظيم الذى أملاه فى نتائجه العملية ، كالخضوع المطلق لسلطان طائفة مجذوبة من الناس ، والاعتماد على فضلهم ، والحج إلى قبورهم ، وتعظيم بقاياهم ، وحبس كل قدرة عقلية ، أو روحية على خدمتهم

وإذا كان من المجازفة أن تعبد الله مستهديا بصيرتك وحدك ، فإن من أشد المخاطرة أن تتطلبه ببصيرة غيرك وقداسة الشيوخ ليس لها من جزاء

قرر كتاب الصوفية هذه الحقيقة ، فى أسلوب بليغ ولكنى سأجتزئ بنقل بضع جمل من حياة علاء الدين العطار ، ذلك الولى الذى فشل - كما رأينا - فى أن ينوم تلميذه تنويما مغناطيسيا ، انتقاما منه لهذه الخدعة التى خدعه بها

يروى مترجم حياته عنه أنه قال « لخير وأقوم أن تكون بجانب الله من أن تكون بجانب خلق الله » وكثيرا ماجرى على لسانه هذا الشعر

إلام تعبد قبور الأولياء
اشغل نفسك بأعمالهم تكن من الناجين

* * *

الفصل السادس

حال الاتحاد

لقد أمكن أن نروى القصة إلى هنا
ولكن مابقى مخبوءا لايمكن التعبير عنه بكلام

* * *

ولو أنك حاولت شتى الطرق للتعبير عنه
لأبت صفر اليدين ، ولظل السر حيث هو فى غموضه

* * *

أن فى طوقك أن تمتطى صهوة جواد من الخيل إلى شاطئ البحر
فإذا جئت إلى البحر فلابد لك من جواد من الخشب

* * *

وجواد الخشب لا يرتجى منه نفع على اليابسة
فهو أداة الراحلين فى البحر

* * *

وهو صامت ، ذلك الجواد من الخشب
صامت ، ذلك الذى يتخذه الناس وسيلة وعمادا فى البحر(١)

* * *

---

(١) جلال الدين الرومى المثنوى ترجمة مختصرة إلى الإنجليزية ، لهوين فيلد Whinfield، ص ٣٢٦

لايستطيع أحد أن يقارب موضوع هذا الفصل - حالُ الصوفى الذى وصل إلى غاية رحلته - دون أن يحس أن كل الأوصاف الرمزية للاتحاد بالله ، والنظريات التى تدور حول طبيعة هذا الاتحاد ، ليست إلا خبط عشواء ، وحطبًا بليل . فكيف إذًا نستطيع أن نكون فكرة عن أمر ، أعلن الذين تَمرَّسوا به أنه فوق التعبير والتصوير ؟ وأستطيع أن أجيب على ذلك ، بأن الصعوبة عينها قد واجهتنا ، فى معالجة مختلف الظواهر الصوفية ، وإن تكن هذه الظواهر أقل خطرًا وأهون منزلة فلم يمنع الشاعر نصحُه بالصمت ، عن أن يبين أعمق أسرار الصوفية فى مقدرة لاتجارى وحصافة لاتسامى

وحال الاتحاد - أيما كانت العبارات التى توصف بها - هى غاية لطريق بسيطة ، تتحرر بها الروح شيئا فشيئا ، من كل ماهو غير ربانى وهى تختلف عن « النرفانا » فالنرفانا زوال للشخصية لاغير ، وأما « الفناء » فهو تلاشى الصوفى عن وجوده الحسى ويستلزم ذلك الفناء « البقاء » ، أو الاتحاد بالحياة الربانية والغاية القصوى عند الصوفى المسلم ، فى اختصار ، أن يصير ربانيا

والحسين بن منصور الحلاَّج قد قُتل فى بغداد ، فى أوائل القرن العاشر الميلادى ويبدو أن قتله قد أملته دوافع سياسية ، ولكن ذلك ليس همنا ولعله أن يكون بين الحشد ، الذى تجمع حول المصلوب قلةٌ ، تعتقد صدق ماقال عن نفسه ، وبقية شهدت ، راضية أو محبذة ، عقوبة زنديق كافر . فلقد فاه بجملة ، إن عفا عنها الإسلام على وجه العموم ، فلن ينساها ، ذلك قوله « أنا الحق » [١]

والبحوث التى ظهرت حديثا للأستاذ « ماسينيون Luis Massignon » [٢] جعلت فى الإمكان تبيان المعنى ، الذى ربطه الحلاج نفسه ، بتلك القولة الشهيرة . وأكدت على وجه التحديد أنها لاتتفق مع التأويلات السنية ، التى أولها

---

(١) الحلاج كتاب الطواسين ص ٥١

(٢) للأستاذ العالم الفاضل « لويس ماسينيون Luis Massignon » بحوث قيمة فى التصوف عامة ، وعن الحلاج خاصة ، ومن أمتع ماكتب عن الحلاج مؤلفه عنه « La Passion d'Al Hallaj » وهو يقع فى مجلدين ضخمين وكذلك « كتاب الطواسين » للحلاج ، الذى نشره فى باريس سنة ١٩١٣ انظر خاصة منه ص ١٢٩ - ١٤١

بها الصوفية المتأخرون ، الذين ينتمون إلى مدارس صوفية مختلفة والإنسان – جريا مع الحلاج – هو فى أصله ، وصفوة عنصره ، ربانى . فقد خلق الله آدم على صورته [(١)] ، ثم أبرز من ذاته تلك الصورة من حبه الخالد ، حتى يرى نفسه كمن ينظر فى مرآة ومن هنا أمر الملائكة بالسجود لآدم [(٢)] ، الذى تجسد فيه كما تجسد فى عيسى

سبحان من أظهر ناسوته سِرُّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا فى صورة الآكل والشارب [(٣)]

وإذا كان « ناسوت » الله يشمل طبيعة الإنسان ، الروحى منها والجسدى ، فإن « لاهوته » لايستطيع الاتحاد بهذه الطبيعة إلا عن طريق التجسد ، أو كما يقول الأستاذ ماسينيون ؛ عن طريق الروح القدس التى تتخذ مكانها حين تحل الروح الجسد [(٤)] ومن هنا قال الحلاج فى بعض شعره

مُزجتْ روحُك فى روحى كما تمزج الخمرةُ بالماء الزلالِ

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم فى صورته وطوله ستون ذراعا ، ثم قال اذهب ، فسلم على أولئك النفر – وهم نفر من الملائكة جلوس – فاستمع مايجيبونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك إلخ »

علاء الدين على المتقى بن حسام الهندى المتوفى سنة ٩٧٥ هـ : كنز العمال جـ ٣ ص ٢١٣

(٢) يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة الآية ٣٤]

(٣) الحلاج الطواسين ص ١٣٠

(٤) لقد أصاب الأستاذ ماسينيون ، حين جعل « الروح القدس » عين « العقل الفاعل » و « العقل الفاعل » – جريا مع الاسكندر الأفروديسى – ليس جزءا من قدرة أرواحنا ، ولكنه يأتينا من خارج انظر فى ذلك

Inge: Christian Mysticism. PP, 360 - 361

ويمكن أن يقارن مذهب الحلاج بمذهبى « تاولر Tauler » و « رويسبرويك Ruysbroeck » ، وبغيرهما من المذاهب التى تعالج ظهور « الله » فى الروح

فإذا مسك شئ مسّنى فإذا أنت أنا فى كل حالٍ (١)

* * *

ويقول

أنا من أهوى ؛ ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا (٢)

* * *

وهذا المذهب فى التأله الشخصى ؛ على الشكل الخاص الذى طبعه به الحلاج ؛ بينه وبين المذهب المسيحى الأساسى نسب واضح ولذا كان هذا المذهب ، عند المسلمين ، كفرا من شر أنواع الكفر وقد قيض الله له أن يعيش؛ دون تغيير فيه بين أتباعه الأقربين والحلوليون ، وهم الذين يقولون بالتجسيد ، يستوى الصوفية - على وجه العموم - وأهل السنة فى نبذهم أشد النبذ والتشنيع عليهم

والصوفية ، وإن رموا الحلول بالعظائم ، إلا أنهم مع ذلك قد بذلوا الجهد فى مباعدة الحلاج عن أن يوصم بالقول به وقد اتخذوا لذلك خطوطا ثلاثة يدافعون منها

فأما أولها . فإن الحلاج لم يرتكب إثما ضد « الحق » ولكنه عوقب ، وكان عقابه جزاء وفاقا ، لارتكابه كبيرة ضد « الشرع » لقد خان ربه بافشائه السر الأعظم لكل من هب وذب وكان عليه أن يقصره على المختارين

وأما ثانيها فإن الحلاج قد قال ذلك تحت تأثير نشوة الجذب وقد ظن أنه متحد بالذات الإلهية ولم يتحد فى الحقيقة بغير صفة من صفاتها الربانية

وأما ثالثها فإن الحلاج أراد أن يعلن أن ليس هناك افتراق أصيل ، أو انفصال ظاهر بين الخلق والحق ؛ من حيث إن الوحدانية شاملة للوجود كله فالرجل الذى يفنى أصالة عن نفسه الظاهرية يبقى فى نفسه الحقيقة وهى « الله »

---

(١) الطواسين ص ١٣٤ س ١٦ ، ١٧

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ س ١ ، ٢

ليس فى هذه العظمة « أنا » ولا « نحن » ولا « أنت »
« فأنا » و « نحن » و « أنت » شئ واحد

* * *

وليس الحلاج هو الذى صاح « أنا الحق » ولكنه الله نفسه ، تكلم بلسان الحلاج الذى فنيت نفسه ؛ كما تكلم إلى موسى بلسان الشجرة (١) التى اشتعلت نارا

وهذا التأويل الأخير ، الذى رد قول الحلاج « أنا الحق » إلى « مسلمة بديهية اتحادية Monistic Axiom » ارتضاها أكثر الصوفية على أنها تمثل المذهب الحلاجى الصحيح .

* * *

ويصف جلال الدين الرومى ، فى أنشودة بديعة ، النور الأحدى وكيف سطع فى آلاف مؤلفة من الأشكال على العالم كله ؛ والذات الأحدية ، وكيف غشَت نفسها ، من جيل إلى جيل ، ثياب الأنبياء والأولياء ، الذين هم شهودها على الخلق ؛ وهى بعد كما هى لم يطرأ عليها تبديل

يتبدى الجمال الخاطف كل لحظة
فى صورة مختلفة فيستهوى الأرواح ويغيب

* * *

يتخذ هذا المحبوب فى كل حين ثوبًا جديدًا
آونة فتى غرانقا وآونة رجلا مكتملا

* * *

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾

[سورة طه : الآيات ٩ - ١٣]

وهو حينا غائص وسط صلصال الفاخورى
الروح غائصة كالغواص فى البحر

* * *

ينتصب توًّا من أعماق الحمأة التى صاغته وأنضجته
فيتبدَّى فى العالم

* * *

فيصير نُوحًا يمتلئ العالم طوفانا بعد دعوته
بينا يمتطى سفينته

* * *

ثم يصير ابراهيم يتبدَّى وسط النيران
التى تنقلب له بَرْدًا وسلامًا
يضرب فى الأرض حينا يسرى عن نفسه

* * *

ثم يصير عيسى يرفع إلى السماء فيقدس الله
وعلى الجملة فهو الذى جاء وهو الذى ذهب فى كل
جيل شهدته

* * *

حتى تبدى آخرا فى صورة عربى فملك العالم

* * *

من هذا الحُوَّل ؟ وما حقيقة هذا التحول ؟

* * *

لقد صار ضياء القلوب المحبوب مُهَنَّدًا فى يد علىّ
وأضحى هذا المُهَنَّد بتَّار زمانه

* * *

لا بل هو الذى تبدّى فى ثياب البشر فصاح « أنا الحق »

وهذا الذى رفع على المشنقة ليس هو المنصور [١]
وإنِ ظن الحمقى أنه المنصور

* * *

لم ينطق جلال الدين الرومى بالكفر
ولن ينطق فلا ترموه بالكفران
فمن يَرْمِ غيره بالكفر فهو كافر
هو مع الذين قضى الله عليهم النار

* * *

وكان من الطبيعى أن تصدم فكرة « الرجل الإلهى God Man » الشعور العام صدمة عنيفة فى مختلف بقاع العالم الإسلامى اللهم إلا فى غربى آسيا وأوسطها . حيث كـــان رعايا أكاسرة فارس يرون فيهم آلهة وحيـــث استقرت مذاهب « التجسيد Incarnation» و « التشبيه Anthropomorphism» و « التناسخ Metimpsychosis »

وقد نطق الحلاج بهذه العبارة ، فى أسلوب لا يستطيع معه أى لون من ألوان الصوفية ، يدعى أنه إسلامى ، أن يحتملها ، بله أن ينسبها إلى نفسه فإن فى تأكيد امتزاج [٢] الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية ، منافاة أصيلة لقاعدة الوحدانية التى قام عليها الإسلام وتاريخ الصوفية فى عهودها الأخيرة ، يبين التألة « Deification » ، وكيف صار مع الاتحاد « Unfication » شيئا واحدا فإن النقيضين ، الله والإنسان ، قد انصهرا فى بوتقة نظرية الاتحاد ، التى بينتها من قبل .

وليس هناك وجود حقيقى منفصل عن الله . والإنسان « فيض Emanation » ،

---

(١) كثير ما يدعى الحلاج (منصورا) . والحق أن ذلك اسم والده

(٢) لم يفهم الحلاج « الحلول » فى هذا المعنى . « انظر ماسينيون الطواسين ص ١٩٩ » . وإن كانت الأبيات التى ذكرتها للحلاج ، فيما سبق ، تتفق فيما اعتقد مع ما يذهب إليه (إكارت Ekhart) – فى قوله : لايستطيع أحد أن يقول (أنا) على الحقيقة إلا الله وحده – من أن الشخصية التى بطن فيها الدائم ، هى نفسها جزء من الديمومة

أو انعكاس لمثال الوجود المطلق . وما نحسبه شخصية ، هو فى حقيقة الأمر عدم. ولا تستطيع هذه الشخصية اتصالا أو انفصالا ، لأنه لا وجود لها ؛ فالإنسان هو الله ، ولكن مع وجود الفارق فالدائم والفانى - كما يقول ابن عربى - وجهان للواحد ، يكمل أحدهما صاحبه ، ولابد من أحدهما للآخر والخلق ظهور مشهود للحق ، والإنسان سر الله مكشوفا مبينًا فى خلقه . ولكن لما كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك كل مايتطلب الإدراك ، من تلقاء نفسه ، لأن لعقله حدودًا لايعدوها ، فهو لايعبر إلا عن جزء من العقل الإلهى ، وليس له أن يقول « أنا الحق » فليس هو « الحق » ولكنه « حق » [١]

وسوف ترى أن غيره من الصوفية ، كجلال الدين الرومى ، يغفلون هذه التفرقة القاسية ، فى لحظات انجذابهم ، مهما كلفهم ذلك

والقول بأن فى تحقيق الصوفى ، لفناء نفسه الذاتية ، تحقيق لأَحديته الأساسية بالله ، ذلك القول يلخص النظرية الإسلامية عن « التأله » فى عبارات ، لعل القراء أن يكونوا قد أحاطوا بها علما . وسأجهد جهدى فى تبيان أدق المعانى التى يمكن أن تنسب إلى تلك النظرية ، مرة فى عباراتى ، ومرة فى عبارات موضحة أقتطفها من المؤلفين المختلفين

وقد فصلت الدرجات المختلفة للفناء فيما سبق وأعلى درجات الفناء - وهى الفناء فى الذات الإلهية - قد وصفها أَدقّ وصف « النفرى » ، الذى استبدل « الفناء » . و « الفـــــانى » « بالوقفة والواقـــف » ؛ يعنى بالوقفة الإنقطاع عن « الطلب » وبالواقف المنقطع عن « الطلب » لفنائه فى المطلوب

وهذه بعض الأصول الرئيسية التى ذكرت فى المتن وفى الشرح

الوقفة نورية تطمس الخواطر المظلمة عن « الغيرية » [٢] ، كما يطمس

---

(١) يقول الحلاج

أنا سر الحق ، ما الحق أنا بل أنا حق ، ففرق بيننا

أنا عين الله فى الأشيا ، فهل ظاهر فى الكون إلا عيننا ؟!

الطواسين ص ١٨٤

(٢) المواقف ص ١٠ س ٤

النور الظلام وترد قيم الظواهر عن الموجودات جميعًا إلى قيم الحقائق عنها ومن هنا يستعلى « الواقف » على الزمان والمكان « دخل الواقف كل بيت فما وسعه ، وشرب من كل مشـــرب فما روى ، فأفضـــى إلى وأنا قراره وعندى موقفه » [١] ومعنى ذلك أنه قد أدرك جميع الصفات الربانية ، وتلبس بكل الرياضات الصوفية ، فلم يقنع بالأسماء دون المسمى ، ولا بالصفات دون الموصوف ، ولكنه طلبه ، وتفكر فى ذات الله فرآه بتشخصه فى ذاته . فلا يدعو ، لأن الدعاء يكون من الإنســـان لله ، وليس غير الله فى « الوقفة » أحد . والواقف لايدع وراءه وارثًا غير الله [٢] وإذا ذهبت الوقفـــة من عقله ، أضـــحى نورًا كله [٣] . فثناؤه على الله ثناء من الله نفسه ، ومعرفته هى عين معرفة الله ، الذى يرى نفسه واحدًا ، كما كان من قبل [٤]

ولا أرانا فى حاجة إلى الكشف عن هذا « التجوهر Essentialistion » ، أو أن شئت « التبدل Substitution » ، و « التحول Transmutation » وكيف يتم ، فذلك لغز الصوفية وسرها إنه لعمل رائع ، صاغه فى المخلوق الخالقُ ، الذى لاتشوب طبيعته أدنى شائبة مما يكون للمخلوقين

ولا يستلزم هذا التجوهر ، كما ذكـــرت من قبل ، « حـــلول » الذات الإلهية ، ولا « اتحاد » الطبيعة البشـــرية بالطبيعة الإلهية ، أيًا ماكان تصورنا لهذا « التجوهر » وكلا هذين المذهبين - الحلول والاتحاد - مقيت كريه وقد نقدهما أبو نصر السراج فى كتاب اللمع ، فى عبارتين ، يقول فى الأولى منهما

« وقد غلطت جماعة من البغداديين ، فى قولهم إنهم عند فنائهم عن أوصافهم ، دخلوا فى أوصاف الحق . وقد أضافوا أنفسهم ، بجهلهم ، إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول ، أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام ومن زعم أنه سمع عن بعض المتقدمين ، أو وجد فى كلامه أنه قال - فى معنى الفناء

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠ س ٧ ، ٨
(٢) المواقف ص ١٤ س ٦
(٣) المصدر نفسه ص ١٥ س ١٤
(٤) المصدر نفسه ص ١٥ س ١١ ، ص ١٦ س ١٠

عن الأوصاف ، والدخول فى أوصاف الحق - فالمعنى الصحيح من ذلك أن الإرادة للعبد ، وهى من عند الله عطية ومعنى خروج العبد من أوصافه ، والدخول في أوصاف الحق ، خروجه من إرادته ودخوله فى إرادة الحق . بمعنى أن يعلم أن الإرادات هى عطية من الله ، وبمشيئته شاء ، وبفضله جعل له مايعطيه ، وقطعه عن رؤية نفسه ، حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى وذلك منزل من منازل أهل التوحيد وأما الذين غلطوا فى هذا المعنى ، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم ، حتى ظنوا أن أوصاف الحق هى الحق ؛ وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لايحل فى القلوب ، ولكن يحل فى القلوب الإيمانُ به ، والتوحيد له والتعظيم لذكره » [١]

وقد استخدم فى الثانية دليلا مماثلا للدليل الذى سبق فى الفقرة الأولى ، ليدحض به مذهب « الاتحاد » يقول

« فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هى القالب ، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الألاهية ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة ، أن تفرق بين البشرية ، وبين أخلاق البشرية لأن البشرية لاتزول عن البشر ، كما أن لون السواد لايزول عن الأسود ؛ ولالون البياض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تبدل وتغير ، بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق . وصفات البشرية ليست هى عين البشرية . والذى أشار إلى الفناء أراد به فناء رؤية الأعمال والطاعات ، ببقاء رؤية العبد لقيام الحق للعبد بذلك » [٢]

والهجويرى يرمى بالغموض والإبهام ، القولَ بأن « الفناء » هو فقدان الذات ، وهلاك مادة الجسد ، وأن « البقاء » معناه « حلول » الله فى الإنسان ، ولكن الفناء الحق عن أى شئ - كما يقول - يدل على إدراك نقصانه ، وانعدام الرغبة فيه فمن « فنى » عن إرادته الفانية « بقى » فى إرادة الله الباقية . أما الصفات فلا تصير ألبتة صفات ربانية ، ولا تتحول عن أصلها

« قوة النار تقلب كل شئ يقع فيها إلى صفتها ، ولا ريب أن قوة إرادة الله

---

(١) اللمع ص ٤٣٣ س ٦ - ١٨

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٧ س ٧ - ١٥

أعظم من قوة النار . ومع ذلك فالنار تؤثر على صفة الحديد ، دون أن تغير طبيعته ، لأن الحديد لا يصير نارا أصالة » ويعرف الهجويرى « الجمع Union » فى موضع آخر من كتابه بأنه « توجه الفكر إلى المطلوب ، وقصره عليه . وهكذا كان شأن مجنون ليلى - أورلندو [١] الإسلام - وجه فكره إلى ليلى ، وقصره عليها ، يراها هى فى كل شئ ، ويرى فيها كل شئ . وقد جاء بعضهم إلى صومعة أبى يزيد البسطامى ، وسأل « أهنا أبو يزيد ؟ » فأجابه « أهنا أحد غير الله ؟ » .

والأصل فى هذه الأحوال جميعا واحد يقول

« قسم الله حبه أجزاء ، ووهب كل واحد من أحبابه ، فضلا خالصا منه ، جزءا على قدر وجده بربه ، ثم أرسل على هذا الجزء أغشية الجسدانية ، والطبيعة البشرية ، والمزاج ، والنفس ، ليغير عملُ هذا الجزء ، من الحب القوى ، جميعَ تلك العناصر التى أضيفت إليه ، حتى تصير طينة الحب حبا خالصًا ، وأعماله ونظراته ملك يد الحب وتسمى هذه الحال ، حال « الجمع » ، سواء عند الذين يعتبرون الإدراك الباطن أو التعبير الظاهر »

ثم يقتبس عن الحلاج قوله

تباركت مشيئتك ياربى وسيدى
تباركت مشيئتك ياقصدى ومرادى
يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حديثى وإيمائى ورمزى
ياكل كلى ، ياسمعى ويا بصرى
يا جميعى ، وعنصرى وأجزائى

الصوفى المجذوب ، الذى تجاوز وهم السيد والمسود ، والرب والمربوب ، إلى نطاق الأحدية ، يستطيع أن ينكر أنه شئ ، وأن يقول إنه كل شئ . وأسوق

---

(١) يلمع بذلك إلى قصة شهيرة ، هى قصة « أورلندو الغاضب Orlando Furioso » ألفها أديب إيطالى كبير ، هو « لدفيكو أريوستو Lodvico Ariosto » ولد فى « رجيو » بلومبارديا ، فى ٥ سبتمبر سنة ١٤٧٤ م ، وتوفى فى يونيو سنة ١٥٣٣ م

وتعتبر هذه القصة خير ما ألف فى الآداب الأوربية عامة ، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر وقد ترجمت إلى مختلف اللغات الحية فى العالم

لك مثالا عن « الإنكار » . إنكار أنك شئ – مقطوعةً من الشعر المطلق فى أصله الفارسى ، لجلال الدين الرومى ، يقول جلال الدين

ياعجبا ! أنا عند نفسى مجهول
فبالله ماذا أفعل الآن ؟

* * *

لا أعظّم الصليب ، ولا الهلال
ولست مجوسيا ، ولا يهوديا

* * *

لا الشرق ولا الغرب ، لا البر ولا البحر لى دارا
وليس بينى وبين الجنّة أو الملائكة نَسبا

* * *

لست مصنوعا من النار ولا من الزبد ، ولم يسوّ خلقى
من التراب ، ولا من قطرات الندى   لم أولد فى
الصين بعيدا   ولا فى سقسين أو البلغار قريبا

* * *

ما ربيت فى الهند ، حيث الأنهار الخمسة ، ولا فى
العراق أو خراسان   ولا أقيم فى هذه الأرض
أو تلك ، ولا أدخل النار أو الجنة   ولم أهبط من
(عدْن) حيث رضوان   ولا أنتسب إلى آدم

* * *

فى مكان من وراء « المكان » ، فى مخرم حيث لاظل للطرّاق
تنزهت روحى واستعلت ، فعشقت فى روح محبوبى الواحد من
جديد

* * *

وأما هذا الشعر الذى يأتى ، فإنه يمثل « الإثبات والإيجاب » حيث تقول إنك كل شئ . يقول جلال الدين

إن يكن فى الدنيا محب – أيها المسلمون – فأنا ذلك المحب
إن يكن فى الدنيا مؤمن ، أو كافر ، أو راهب نصرانى ، فأنا هو

* * *

أنا ثُمالة الكأس ، والساقى   أنا المغنى ، والرباب ، واللحن
أنا القنديل ، والمحبوب   أنا الشراب ، ونشوة المخمور

* * *

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهبا فى الدنيا ، وأقسم بربى أنها ليست شيئًا غيرى

* * *

أتعرف ما الأرض والهواء ؟ والنار والماء ؟
أنا الأرض والهواء ، والنار والماء
لا بل الجسد والروح كذلك

* * *

الحق والباطل ، والخير والشر ، واليسر والعسر
منذ كانت إلى أن تنتهى
والمعرفة والعلم ، والزهد والتقوى والإيمان ، أنا كلها

* * *

بل أنا دون ريب نار جهنم ، بألسنتها الملتهبة
بل أنا الفردوس وعَدْن ، وما فيهما من الحور العين .

* * *

أنا هذه الأرض والسموات بكل ماحوت
من إنس وجن وملائكة

* * *

وما نطق به جلال الدين فى لحظة من لحظات جذبه ، وصفه « هنرى مور Henry More » على أنه رياضة سابقة فى قوله

« ما أروعها حالا وما أجلها ! حين تحيا الروح فى الله . فتدفع حياةُ الله الروح فى أرجاء السموات والأرض ، وتتحد بها ، وبعد قليل تحس نفسها حية ، قد انتظمت حياتُها العالم كله ، فترى المتعدد واحدًا ، وترى نفسها ، إن كان ثمة نفس لها ، جزءا من الواحد

* * *

والاستغراق فى نشوة « الفناء » ، غاية المطاف ، عند بعض الصوفية فلا تقوم بينهمّ - إن بلغوها - وبين العالم صلة ما ، ولا يبقى فيهم من أنفسهم شئ . فهم قد ماتوا من حيث إنهم أفراد وهم غرقى فى « التوحد » ، لا يدرون ما الشريعة ولا الدين ، ولا يعرفون رسمًا من رسوم كون الظواهر ، ولكن هؤلاء العابدين ، المشغوفين بربهم ، الذين لايعود إليهم صحوهم أبدا ، قد وقعوا دون أعلى درجات التحقق ، ولم يلابسوها فالحلقة المفرغة للتأله ، لابد أن تجمع الوجوه الظاهرة والباطنة للألوهية ، الواحد والكثرة ، والحقيقة والشريعة فليس حسبك أن تفر من جميع ماهو آدمى ، بل لابد لك من الولوج إلى الحياة السرمدية لله ، بارئ الكون ، كما ظهرت فى مصنوعاته والبقاء فى الله ، بعد الفناء عن النفس علامة « الإنسان الكامل » الذى لايرحل إلى الله فحسب - وأعنى بالرحلة إلى الله النفاذ من التعدد إلى التفرد ، ومن الكثرة إلى التوحد - ولكنه يحيا فى الله ، ويحيا بالله ؛ على معنى أن يرجع بربه - ولم يزل فى حال الإتحاد - إلى عالم الظواهر الذى عنه نزع ، ويظهر فى الكثرة التفردَ ، وفى التعدد التوحد وفى هذا النزول يجعل الشريعة رداءه الظاهر

والحقيقة رداءه الباطن

لأنه ينزل الحقيقة ، ويبينها للناس ، وهو مع ذلك يؤدى ماطولب به من أمور الشريعة . ونستطيع أن نقول عن ذلك « الإنسان الكامل » ماقاله متصوف مسيحى عظيم

« إنه يرحل إلى الله بحبه الباطن ، فى العمل الصالح الدائم وهو يدخل فى ربه بسبب ميله المثمر إلى الراحة الدائمة وهو يحيا فى ربه ، ولكنه مع ذلك يتجه صوب الخليقة ، فى روح من الحب لها جميعًا ، وفى فضائل الأخلاق ، وصوالح

الأعمال وهذه أرفع درجات الحياة الروحية [١]

ويصف عفيف الدين التلمسانى [٢] ، فى شرحه على مواقف النفرى ، مراحل صوفية أربعًا

فأما الأولى فتبدأ بالمعرفة وتنتهى بالفناء الكامل

وأما الثانية فتبدأ حيث يخلف البقاء الفناء ، ومن وصل إلى هذه المرتبة ، رحل فى الحق ، بالحق ، إلى الحق ، حتى يصير هو حقا ولا يزال يرحل حتى يصل إلى مرتبة القطب [٣] التى هى مرتبة الإنسانية الكاملة ، ويصير مركز العالم الروحى ، حتى أن كل نقطة أو حد يصل إليها الأناسى ، متساوية فى البعد عن مرتبته ، قرب ذلك الحد أو بعد إذ أن جميع المراتب تدور حول مرتبته ؛ ولا فرق عند القطب بين القرب والبعد ومن حاز هذه المرتبة الرفيعة ، كان العلم ، والمعرفة ، والفناء ، أنهارا من محيطه ، يمد بها من يشاء وله أن يهدى

---

(١) Ruysproeck. Quoted in E., Underhills' Introduction to Mysticism. P., 522.

(٢) عفيف الدين سليمان بن على بن عبد الله بن على التلمسانى ، الأديب الشاعر ، قيل عنه أنه « أحد زنادقة الصوفية » أما شعره فقى الذروة العليا ، من حيث البلاغة ، لا من حيث الاتحاد ، كما يقول ابن العماد الحنبلى له عدة تصانيف منها « شرح أسماء الله الحسنى » و « شرح مواقف النفرى » و « شرح النصوص » وغير ذلك وله ديوان شعر ، وتوفى خامس رجب ، سنة تسعين وستمائة ، وله ثلاثون سنة

ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب ج ٥ ص ٤١٢ ، ٤١٣

(٣) يقول الجرجانى « القطب – وقد يسمى غوثًا باعتبار التجاء الملهوف إليه – وهو عبارة عن الواحد ، الذى هو موضع نظر الله فى كل زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه وهو يسرى فى الكون ، وأعيانه الظاهرة والباطنة ، سريان الروح فى الجسد ، بيده قسطاس الفيض الأعم وزنه يتبع علمه ، وعلمه يتبع علم الحق وعلم الحق يتبع الماهيات الغير المجعولة فهو يفيض روح الحياة ، على الكون الأعلى والأسفل وهو على قلب إسرافيل ، من حيث حصته الملكية ، الحاملة مسألة الحياة والإحساس ، لا من حيث إنسانيته وحكم جبريل فيه ، كحكم النفس الناطقة فى النشأة الإنسانية وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الواقعة فيها »

الجرجانى التعريفات ص ١١٩

الناس إلى سبيل ربه ، لا يطلب على ذلك إذنًا من أحد وقبل أن يوصد باب النبوة[١] كان يدعى نبيا ، فأما فى أيامنا تلك فإنه يدعى شيخا هو هادى الأرواح . وهو غوث لمن يرجو معونته ، فقد جمع فى نفسه جميع الأحوال الجِبِلِّيَّة للنوع البشرى وهو كسائق العيس ، يسع بكل إلى أهله

فأما فى المرتبة الثالثة فإن الإنسان الكامل يجعل همه منصرفا إلى خلق الله إما على أنه نبى ، وإما على أنه شيخ ويكشف عن نفسه لهؤلاء الذين فشلوا فى التحرر من أوصافهم الترابية ، كل بحسب درجته فهو يبدو لصاحب الدين متدينا ؛ وللمتأمل ، الذى لم يحظ بعد بتمام التأمل ، عارفا ؛ وللعارف ، الذى فنى عن ذاتيته ، واقفا ؛ ويبدو للواقف قطبا . فهو أفق كل مرتبة صوفية ، ودونه نهاية حلقات الرياضة ، التى تعرفها كل جماعة من السالكين

والمرتبة الرابعة ترتبط عادة بالموت الحسى وقد أشار النبى إليها ، حين قال ، وهو على فراش الموت « اللهم فى الرفيق الأعلى »[٢]

وإذا نحن بتينا حكمنا على هذه العبارات الغامضة ، التى وصف بها عفيف الدين هذه المرتبة ، فإن الإنسان الكامل - وقد أسبغت عليه جميع الصفات الربانية - يصبح ، كما يقولون ، المرآة التى يكشف الله فيها عن نفسه لنفسه

يقول ابن عربى

أن تبدى حبيبى بأى عين أراه ؟!
بعينه لا بعينى فليس غيرٌ يراه

* * *

(١) وذلك قبل زمن محمد ﷺ ، فهو خاتم النبيين

(٢) يروى البخارى بسنده ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يقول ، وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبى قط ، حتى يرى مقعده من الجنة ، ثم يحيا - أو يخير - » فلما اشتكى ، وحضره القبض ، ورأسه على فخذ عائشة ، غشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ، ثم قال « اللهم فى الرفيق الأعلى ! » فقلت « إذا لايجاورنا - أو لا يختارنا » فعرفت أنه حديثه الذى كان يحدثنا وهو صحيح »

البخارى باب مرض النبى ﷺ جـ ٦ ص ١٠ - بولاق سنة ١٣١٤ هـ

وما بالروح من نور ، وتلك العين التى بها ترى ، وما تراه ، يضحى شيئًا واحدًا .

وبعد . فقد اقتفينا أثر الصوفى ، فى بحثه عن الحقيقة ، إلى منزلة بطلت معها لغة الكلام . وليست بعدُ لينة مطّردة ، كما تبدت فى هذه الصفحات ، وما أشبه الخُمار ، يصيب الشارب بعد السكر ، بما يعانيه السالك من أهوال ، تعتصره اعتصارًا ، وتقع له بين مرتبة السكر العليا ، ومرتبته الدنيا

وأوصاف هذه الرياضة – أو ليلة الروح الليلاء ، كما يدعوها المؤلفون من المتصوفين المسيحيين – يمكن أن توجد فى ترجمة حياة أى ولى من الأولياء المسلمين . فالجامى ، فى نفحات الأنس ، يروى أن درويشا من مريدى شهاب الدين السهروردى [1] قد أفيض عليه جذب فى تأمل « التوحيد » ، وفى حال « الفناء » . وذات يوم ، جعل يبكى وينتحب ، فلما سأله الشيخ شهاب الدين عما يبكيه ، قال « ويلى ! حجبنى « التعدد » عن إدراك « التوحد » فأنا مطرود ، ولا أستطيع أن أجد مقامى السابق » فأهمه الشيخ أن تلك بوادر مقام البقاء ؛ وأن ماهو فيه أعلى مما خلفه من قبل

ولكن هل تبقى الشخصية فى الاتحاد النهائى بالله ؟. إن عنينا بالشخصية الوجود المدرك – متميزا عن الله ، وإن لم يكن منفصلا عنه – فإن غالبية الواصلين من الصوفية يقولون لا فكما أن قطرة المطر تسقط فى المحيط ، فلا يقال إنها فنيت ، بل ليس لها وجود منفصل ، فكذلك الروح المتجوهرة لا يمكن تمييزها من الألوهية الشاملة

ومن الحق أن الصوفية ، حين يعبرون عن اتحادهم ، فى عبارات الحب والزواج ، لا يستبعدون فكرة الشخصية ، ولا يتأتى لهم ذلك ، لو أرادوه وليس

---

(١) شهاب الدين ، يحيى بن حبش أميرك ، السهروردى المقتول . أحد أذكياء بنى آدم . كان رأسا فى معرفة علوم الأوائل ، بارعا فى علم الكلام ، مناظرا محجاجا ، متزهدا زهدَ مَزْدَكَة وفراغ ، مزدريا للعلماء ، مستهزئا ، رقيق الدين قدم حلب واشتهر اسمه ، ثم رمى بالزندقه ، ومات فى ظروف غامضة سنة سبع وثمانين وخمسمائة وهو صاحب « هياكل النور » وقد نشرت له جمعية المستشرقين الألمانية ، فى الأستانة ، مجموعة رسائل نفيسة انظر عنه

ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٩٠

من الضرورى ، أن تكون هذه العبارات المجازية ، على غير وفاق مع مذهب « وحدة الوجود » ، الذى لا يرضى عن وجود أى تفريق أو تمييز . فالاتحاد بروح العالم هو أسمى فضل متصور للأرواح ، التى تتبادل الحب بينها ، فى هذه الدنيا .
يقول جلال الدين الرومى

ما أبدعها لحظة ! حين جلسنا فى القصر ، أنا وأنت
رسمان ، وجسدان ، ولكن روح واحدة ، أنا وأنت

* * *

فألوان الروض ، وصداح الطير سيخلد
حين نلج الروض ، أنا وأنت

* * *

وستطل علينا نجوم السماء
وسنريهم القمر عينه ، أنا وأنت

* * *

أنا وأنت تمازجنا فى جذبنا ، بعد أن فنيت الشخوص
خلصنا من تافه القول ، وامتلأنا سرورًا ، أنا وأنت

* * *

فما فى السماء ، من طيور براقه الريش ، سوف تأكل أفئدتها حسدا لنا
حيث نضحك ملء أفئدتنا أنا وأنت

* * *

ومن أعجب العجب أننا – أنا وأنت – ونحن جالسان فى هذا الركن
جالسان كذلك فى العراق وخراسان ، أنا وأنت

* * *

ولعله يبدو غريبا على أنانيتنا ، معشر الغربيين – أن يشعل منظر المشاركة ، فى خلود الروح الإنسانية ، الجامع الشامل ، فى الصوفى حماسا عميقا غلابا

كحماس أشد المؤمنين باستمرار الحياة الشخصية بعد الموت وجلال الدين الرومى – بعد أن وصف تطور الإنسان فى عالم المادة ، وتوقَّع نموه المطرد فى عالم الروح – جأر بدعاء خالص ، من ذات قلبه ولم دعا ؟ – لفناء النفس فى محيط الربوبية المتلاطم

متُّ معدنًا وصرتُ نباتًا
ومتُّ نباتًا ونهضتُ حيوانًا
ومتُّ حيوانًا وكنتُ إنسانًا

* * *

ولم أخاف ؟ ومتى انقضى الموت ؟
سوف يموت منى الإنسان ، لأُخلق مع
الملائكة المقربين بل سأدع الملائكية

* * *

وكل شئ خلا الله هالك ، فإذا ضحيت بروح الملك
فسأصير إلى مالا يقدر فكر أن يتصور

* * *

ويحى ! أفننى ! فإن الفناء
يصيح فى ألحان قيثارة الخلود
« إليه سوف نعود »

* * *